يصعدوا فى المساء الى الدار التى فيها ابن المعتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا فى السميريات وأصعدوا فى المساء فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا اليهم. وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم فى هذا المأزق ولا يدرى لم فعل ذلك

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذى اختاره أو اختير له وهو محمد بن داود وهربا وغلام له ينادى يامعشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى (ينسبونه الى الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهارى مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظنا منهم أن من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونه فلم يلحقه منهم أحدا ولما رأوا ذلك اختفى محمد بن داود فى بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر الى دار أبى عبد الله بن الجصاص فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدور لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضا

فى ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من كان لهم يد فى بيعة ابن المعتز فقتلهم وأرسل الى ابن الفرات فاستوزره . ثم عثر على ابن المعتز فأخذ وحبس الى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين بن حمدان فلم يدرك وأخيرا رضى عنه المقتدر فحضر الى بغداد مرضيا عنه

وانتهت بذلك هذه الفتنة التي بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها واشتد الانتكاس في عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فان المقتدر حين ولى كان شابا غرا لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئاً وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم في كل ما يجرى من الشؤون واليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أو وزارة والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف لا يفكر فى صلاح ولم يعد بيده شئ . ولنصور لكم الحال تماما نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم اذا قدمت رشوة ممن يريد أن يحل محلهم

كان أول وزرائه أبو الحسن على بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٩٦ فنظر فى الأمور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلا والايقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل فى هذه الفتنة أبو عمر محمد بن يوسف القاضى فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديدا رق له منه وسأله حراسة نفس ولده أبى عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته الا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلباً لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبى عمر على مائة ألف دينار فأدى منها تسعين ألفاً من جملتها ٤٥ ألفاً كانت عنده وديعة للعباس بن

الحسن وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد

مضى ابن الفرات فى وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما اختلفت عليه الأمور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من سنة ٢٩٨ فاحتيج فيه من النفقات الى ماجرت العادة به وكانت المواد قد قصرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة مايصرفه فى نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعداؤه الطريق الى الوقيعة فيه

فركب فى يوم الأربعاء لأربع خلون من ذى الحجة الى دار الخلافة وهو على غاية السكون والطمأنينة وجلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه قبل الوصول الى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم الى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق الى دار ابن الفرات فأحاط عليها وتسرع الجند والعوام الى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الأمر فى النهب حتى ركب أبو القاسم فى الحال بعد العصر فى القواد والغلمان وطلب النهابة وعاقب قوما منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثانى

محمد بن عبيدالله بن خاقان

فقلد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والاقطاع والاملاك والعقار والاموال والغلات وصح له مامقداره ألف ألف دينار عيناً وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحل والكراع والجمال

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه وحول من بيت مال الخاصة الى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان فى ابن خاقان اهمال للأمور واطراح للأعمال وتلون فى الأفعال فكانت الكتب ترد عليه وتصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشئ فيها واذا أخرجت اليه جوامعها تركها أياما فلم يطالعها وربما وردت رسائل بمحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياما لا تفض واذا قلد عامل أتبع بمن يعزله قبل وصوله الى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه فقيل انه اجتمع فى خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماه الكوفة فى عشرين يوما وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازبدى وأنهم اجتمعوا وتشاكوا مادفعوا اليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم ومابذلوه عن تقليدهم على أن ينالوا من مال العمل ماقدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية

وكان اذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال نعم وكرامة حتى لقب دق صدره. وبسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والاطلاقات والاقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على اضاعة الحقوق واسقاط الرسوم فسخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال فى اخلال الأعمال ووقوف الأحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغباً بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب وأخرج اليهم من بيت مال الخاصة شيئاً بعد شئ . حتى اذا انحل النظام وبان الانتشار

وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنسا الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الأمر على وزارة

علي بن موسى

وكان بمكة بعيدا عما يجرى ببغداد خوفا على نفسه فأنفذ اليه فلما حضر قلد الوزارة فى عاشر محرم سنة ٣٠١ فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهرا وخمسة أيام فسلم الى الوزير الجديد هو وولداه وأبو الهيثم بن ثوابة ولما نظر على فى الأمور وجد فى أيدى القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيه وكتابه فى فك واثبات وتقرير وايجاب ومظالم وتسويغات واقطاعات ومقاطعات مما مثله يأتى على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقانى أذن لهذه الجماعة فى التوقيع عنه بكل مارأوه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وغرضهم الارتفاق وأخذ مالاح تأمل على بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ماثبت فى الدواوين ومالم يثبت وعمل على اعلام المقتدر ماعلى الملك وبيت المال من الوهن والنقص بامضائها فقال له أحد خلصائه لاتفعل فان الخليفة على ماتعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والملتجئين اليهم فاعدل الى أن تنظر ماقد أنشئ الكتاب به من ديوان الدار الى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فانك تمضى القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمرك بامضائها كلها فتقع فى الطويل العريض -- فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره فى اسقاط التوقيعات وقد كان الحواشى سبقوا اليه بالشكوى فقال له ارجع الى الخاقانى وابنه فما عرفاك أنه بتوقيعهما أمضيته وما

كان بتوقيع أصحابهما رددته — فأمر بجمع الرقاع وأنفذت الى الخاقانى وابنه فى السجن فأقر الخاقانى بصدور كلها عن اذنه فقامت قيامة على بن عيسى من ذلك الجواب واضطر الى امضاء الأكثر واسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة تشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقانى وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجئ

كان على بن عيسى رجلا عاقلا متديناً متصونا متعففاً عارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيدا من التبذل والهزل على شح غالب فى طباعه وتجهم ظاهر فى أخلاقه وعمد فى نظره الى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج والمضايقة فى الجارى والرزق ورد كثيرا مما وقع به الخاقانى من الاثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه واستثقل أكثر الناس موضعه وضاقت صدورهم بنظره ووقع الشروع فى افساد أمره ورد ابن الفرات .

عرف الوزير ما يجرى من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعه بذلك الى السيدة أم المقتدر

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها وحراستها وأسبغ نعمه عليها وزاد فى احسانه اليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئة وفوائده السنية عندها وبلغها فى سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفى نفسها وفى الأمراء أستودعهم الله واستوهبه أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمنه ورأفته . وصلت

الرقعة أعز الله السيدة وعرفت ما تضمنت فأما الفتنة التى كانت ملتحمة مع أعظم الاعداء مضرة وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكافت الانفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ الله أمير المؤمنين والسيدة فى جميعها المحبة وانتظمت فى صدور الأعداء شرقا وغربا الهيبة وما أنفقت مع ذلك من بيت مال الخاصة بعد الذى رددته اليه نصف عشر ما أنفقه محمد بن عبيد الله الخاقانى وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله فى أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفى بالله وكان من النظر فى القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات فى أيام المعتضد بالله وما أقول قولا يدفع لأن الدواوين تشهد به وحسبانات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد بالله والى هذه الغاية يعلمه وان سئل عنه صدق هذا مع رفقى بالرعية وعمارتى النواحى المختلة وازالتى عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمى بالحجارة على ما قيل لى عند اجتيازهم فى دجلة . وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها وبباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفا من هذه الاصناف يقدر أن يقول انه قبض فى وقت من الأوقات قبضا متصلا وليس يقول أحد منهم انه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شئ من رزقه ونزله وكذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم . وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم

ونوظرت فلم تكن لهم حجة فى الاستحقاقات وانما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئاً لكان ذلك واجبا صالحا ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شئ متأخر ما كان هذا فى زمن من الأزمان وما تركت أن قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه الله فى ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم موسى مرة بعد مرة فيه وأما ماقيل للسيدة أعزها الله فى استعفائى فلم أستعف نصا ولو حملت الرماد على رأسى لما تكرهت ذلك ولا تأبيته وانى لا ألزم نفسى الصبر على كل نائبة فى خدمة سيدنا أمير المؤمنين أيده الله وأرى ذلك ديانة ولكنى أعز الله السيدة أضجر كما يضجر الناس اذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدى فى النصيحة وتأدية الأمانة فان كان ذلك واقعا موقعه فهو الذى أقصد وان كان يظن بى غير ما أنا عليه فهى المصيبة وقد يحرم الانسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده ومايسعنى وما يحل لى أن أؤخر الصدق فى جميع الأحوال قاضيا بذلك حق الله عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحق السيدة أعزها الله وأسأل الله أولا وآخرا أن يصلح لهما أمورهما ظاهرا وباطنا صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه

وانما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء فى سياسة المملكة ان على بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله فى وزراته هذه أن أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الاهواز وحصن مهدى ونهر السدرة وكان يعترض فى هذه المواضع على ما يجهز الى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على

المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية فى ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديوانا سماه ديوان البر . ولما كان بمكة وجد الماء ضيقا على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة اليها فابتاع عددا كثيرا من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئرا عظيمة فخرجت عذبة شروبا وسماها الجراحية . وابتاع عينا غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به الى أهل الضعف والمسكنة

ومع كل ما أجراه من الاصلاح فان حكومة النساء لم تتركه هادئ البال قرب عيد الأضحى واحتيج الى ماجرت العادة باطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة فى آخر ذى القعدة مخاطبة فى ذلك ومقررة للأمر فيه وكان محتجبا فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذرا لطيفا وصرفها صرفا جميلا فغضبت وانصرفت وأعلم على بن عيسى خبرها فى حضورها وانصرافها فأنفذ اليها واستعذرها فلم تعذر وصارت الى المقتدر بالله والى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك الى القبض عليه فى يوم الاثنين ثامن ذى الحجة سنة ٣٠٤ فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و ٢٨ يوما

وفى يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه الى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من

الضياع والأموال فارتجع ما كان حصل فى أيدى الناس القواد وخواص الدولة من ذلك

وكان قد تعهد وهو فى السجن أنه متى رد للوزارة أطلق للولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه فى وزارته الأولى تماما وادرارا وأن يحمل الى المقتدر كل يوم الف دينار والى السيدة والامراء ٥٠٠ دينار فوفى بما تعهده به

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطاً وضياعها بمال يخرجه ضمنه اياها على ابن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحاً كثيرا فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه الى غيره وكان بواسط قسيم الجوهرى يشرف للسيدة أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيبسطه فاتفقا على أن قسيما يسفر له فى نيل الوزارة فذهب قسيم الى بغداد وخاطب نصرا الحاجب فى ذلك وأطعمه فى حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضاً ووافق هذا القول والسعى سوء رأى نصر الحاجب فى ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقيعة فيه وقول الناس انه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال الى غير ذلك من الوشايات التى تروج فى حكومة النساء فاتفق الأمر على اصعاد حامد وتوليته الوزارة فأرسل اليه فحضر وفى يوم حضوره قبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ٣٠٦ وكانت مدة وزارته هذه الدفعة سنة وخمسة أشهر و ١٩ يوما

حامد بن العباس

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة فظهر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه الى الجهل بأمور الوزارة فأمر باطلاق على بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه فى الأمور ويصدر عن رأيه ثم انه استبد بالأمر دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما

هذا وزير بلا سواد وذا سواد بلا وزير

ثم إن حامدا أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته على بن أحمد الماذرئى ليصحح عليه الأحوال فلم يقدر على اثبات الحجة عليه فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام اليه فلكمه وكان حامد سفيها فقال له ابن الفرات أنت على بساط السلطان وفى دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أوغلة تستفضل فى كيلها ولا هو مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيع اللؤلؤى قل لأمير المؤمنين عنى ان حامدا انما حمله على الدخول فى الوزارة وليس من أهلها أننى أوجبت عليه أكثر من ألفى ألف دينار من فضل ضمانه وألححت عليه فى مطالبته بها فظن أنها تندفع عنه بدخوله فى الوزارة وأنه يضيف اليها غيرها فاستشاط حامد وبالغ فى شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده الى محبسه وقال على بن عيسى ونصر الحاجب لحامد قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطانا لا ينام

ولما رأى حامد أنه لا عمل له مع على بن عيسى شرع فى عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستحدثة والفراتية بسواد بغداد والكوفة

وواسط والبصرة والاهواز وأصبهان واستأذن فى الانحدار الى واسط ليدبر أمر ضمانه الأول فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلى بن عيسى يدبر الأمور وأظهر حامد زيادة ظاهرة فى الأموال فسر المقتدر و بسط يد حامد فى الأعمال حتى خافه على بن عيسى ثم ان السعر غلا ببغداد فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر باحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس الى شغبهم فأنفذ حامد جندا لمنعهم فقاتلتهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً فأنفذ المقتدر جيشاً قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدى من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التى لحامد ولام المقتدر وغيرهما و بيع ما فيهما فرخصت الأسعار وسكن الناس وأفهم على بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الأسعار انما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال فى البيادر وخزنها فأمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر على بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس

ضج الأولاد والحرم والخدم والحشم الى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فان على بن عيسى كان يؤخرها فاذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضاً وأسقط بعضاً وحط من أرزاق العمال فى كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الأمر شئ غير لبس السواد وأنف من اطراح على بن عيسى لجانبه

فاستأذن حامد وسار الى واسط . وجرى بين حامد وبين مفلح الأسود كلام فقال حامد لقد هممت أن أشترى مائة خادم أسود وأسميهم مفلحا فحقدها عليه مفلح وكان خصيصا بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالا جليلة وكتب على يده رقعة يقول أن تسلم الوزير وعلى ابن عيسى وابن الحوارى وشفيعا اللؤلؤى ونصرا الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وهـذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فأصاب ذلك السعى وقبض على على بن عيسى فى ربيع الآخر سنة ٣١١ وأطلق ابن الفرات وعهدت اليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زى راهب وخرج من مكانه الذى اختفى فيه ومشى الى نصر الحاجب وسأله أن يوصل حاله الى الخليفة فدعا نصر مفلحا فلما حضر ورأى حامدا قال أهلا بمولانا الوزير أين مماليكك السودان الذين سميت كل واحـد منهم مفلحا ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سلم الى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحسن ابنـه وكان وقحا سيئ الأدب ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعذب حامدا بأنواع العذاب وأخيرا أنفذه الى واسط ليبيع أملاكه بها ثم دس من سمه فى الطريق فمات وظهر فى هـذه الوزارة من المحسن شر عظيم لـكثرة ما نـكب الناس وصادرهم وعذبهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها وصادف ذلك أن وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج فتضاعفت المصائب على أهـل بغداد رؤساهم تقتل وحجاجهم تنهب وتموت عطشا ولا مدافع ولا محام فـكثر الارجاف على ابن الفوات وأخيرا صدر

الأمر بالقبض عليه فى ثامن ربيع الأول سنة ٣١٢ بعد أن استقر فى هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوما فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن . وتولى الوزارة

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان

بعد أن تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفى ألف دينار فكان ذلك سببا لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بأنواع العذاب ليجيب الى مصادرة يبذلها فلم يجبهم الى دينار واحد وقال لا أجمع لكم بين نفسى ومالى واشتد عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه الى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل ٧١ سنة وعمر ولده المحسن ٣٣ سنة وكان ابن الفرات يقول ان المقتدر يقتلنى . عاد يوما وهو مفكر كثير الهم فقيل له فى ذلك فقال كنت عند أمير المؤمنين فما خاطبته فى شىء من الأشياء الا قال لى نعم فقلت له الشىء وضده ففى كل ذلك يقول نعم فقيل له هذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول فقال لا والله ولكنه أذن لكل قائل وما يؤمننى أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم والله انه قاتلى . وكان ابن الفرات كريما ذا رياسة وكفاية فى عمله حسن السؤال والجواب ولم يكن له سيئة الا ولده المحسن

لم يكن الوزير الخاقانى بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع الى المقتدر رقعة من أبى العباس الخصيبى يذكر معايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الأموال وطمع العمال ثم ان الوزير مرض فوقفت

الأحوال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل اليه المقتدر فى ذلك فلم يقدر على شئ فعزل فى رمضان سنة ٣١٣ وولى الوزارة

أبو العباس الخصيبي

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فانه كان شروبا فكان يصبح سكران لاقصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها الا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها فضاعت الأموال وماتت المصالح ثم انه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من الأشغال وكل الأمور لنوابه وأهمل الاطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية على بن عيسى فقبض عليه فى ذى القعدة سنة ٣١٤ بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا واستدعى على بن عيسى من مكة وكان بها مقيما ليدبر أمر الوزارة وأمر عبيد الله بن محمد الكلوذانى بالنيابة عن على ابن عيسى الى أن يحضر فسار على بن عيسى فحضر بغداد فى أول سنة ٣١٥ وبه صلحت الأحوال نوعا وكان من أقوم الأسباب فى ذلك أن الخصيبي كان قد اجتمع عنده رقاع المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب فنظر فيها على وأرسل فى طلب تلك الأموال فأقبلت اليه شيئاً بعد شئ فأدى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو فى المهد فان آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الأعمال بنفسه ليلا ونهارا واستعمل العمال فى الولايات واختار الكفاة ومع ما أظهره من الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لأنه كان يرى أن الاصلاح

لا يكون الا مع الاقتصاد فى النفقة ونفقة الخدم والحرم ولا سيما أم المقتدر كانت هائلة فلا بد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس على بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصبر وقال أنت عندى بمنزلة والدى المعتضد فألح فى ذلك ومع أن الرجل كان يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبى سوء الحال فى تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية أن ينيله هذه الراحة فى خروجه فأمر المقتدر فى منتصف ربيع الأول سنة ٣١٦ بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولى الوزارة

أبو على بن مقلة

وكما كانت لأبى على يد ماهرة فى الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة فى أخذ الرشاء على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك الى عزل ابن مقلة فى آخر جمادى الأولى سنة ٣١٨ وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزر

سليمان بن الحسن

ولما لم يكن المقتدر ميالا لسليمان وانما رضيه تبعاً لرأى مؤنس أمر على بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وأن لا ينفرد عنه سليمان بشىء وصودر ابن مقلة بمائتى ألف دينار

لم تطل هذه الوزارة كثيرا لأن الأحوال ضاقت على سليمان وكثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة

بالسعاية به والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك وكانت وزارته غير متمكنة لأن على بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الأمور وأفرد على ابن عيسى بالنظر فى المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فانه كان يقيم من قبله من يشترى توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك ادرارات الفقهاء وأرباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى ذلك الى القبض عليه لثلاث بقين من رجب سنة ٣١٩ بعد سنة وشهرين واستوزر

أبو القاسم الكلوذانى

ولم تكن وزارته أيضا عن رغبة المقتدر بل عن رأى مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك أنه كان ببغداد انسان يعرف بالدانيالى وكان زراقا ذكيا محتالا وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق ويذكر فيه اشارات ورموزا يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير . توصل الى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه فى كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول انه يوزر للخليفة الثامن عشر من بنى العباس وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعادى وتتعمر الدنيا فى أيامه وجعل هذا كله فى جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك الى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له أتعرف فى الكتاب من هو على هذه الصفة فقال ما أعرف الا الحسين بن القاسم فقال المقتدر صدقت وان قلبى ليميل اليه فان جاءك رسول

برقعة منه فاعرضها عليّ واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً وذهب الدانيالى الى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة الى مفلح فأوصلها الى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئاً من بيت المال الخاص فعزل الكلوذانى فى رمضان سنة ٣١٩ بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها

الحسين بن القاسم

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوى التدبير فضاقت عليه الأحوال وكثرت الاخراجات فاستسلف جملة وافرة وأطلع المقتدر على اضطرابه فعزله فى ربيع الآخر سنة ٣٣٠ بعد سبعة أشهر واستوزر

أبا الفتح الفضل بن جعفر وهو آخر وزرائه

تولى الوزارة فى عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثاً وكانت تنال بالرشوة ودخل فى أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى فى العمل كثيراً لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون الا اذا حوبوا بالأموال الكثيرة التى بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير فى ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان مايقبض على الأول و يصادر ويعين الثانى وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها فى نظر العامة ولا فى نظر متغلبي الاطراف حرمة

وليس ذلك كل ماأسقط أمر الدولة فى عهد المقتدر بل أضيف الى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الاخلال بالأمن فى العراق والحجاز

أمر القرامطة

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى فقتل سنة ٣٠١ بعد أن استولى على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابى وكانت له غزوات متتابعة الى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته لها سنة ٣١١ فانه سار اليها فى ألف وسبعائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها وأقام بها سبعة عشر يوما يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد الى بلده ومنها توجه الى طريق الحاج ايلقاهم عند رجوعهم الى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقى الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فنى زادهم فارتحلوا مسرعين الى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ثم عاد الجنابى الى هجر وترك الحاج فى مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله فى الوقت الذى قتل فيه المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على ألسنتهم

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والاهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيبانى متقلدا أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفا من أبى طاهر ومعه

ألف رجل من بنى شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلطان ومعهم ستة آلاف رجل فلقى أبو طاهر القرمطى جعفرا الشيبانى فقاتله جعفر فبينما هو يقاتله اذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهزم من بين أيديهم فلقى القافلة الأولى فردها الى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر الى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهارا فيقيم فى الجامع الى الليل ثم يخرج فيبيت فى عسكره وحمل منها ماقدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك ثم عاد الى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم

وفى سنة ٣١٥ سار أبو طاهر نحو الكوفة فأمر المقتدر يوسف بن أبى الساج أن يسير اليها لحمايتها من القرامطة وقد أعد له بالكوفة الانزال له ولعسكره فسبقه اليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن وكانت شيئاً كثيرا ووصل يوسف بعد أبى طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل الى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم الى طاعة المقتدر فان أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد فقالوا لاطاعة علينا الا لله والموعد بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال ان هؤلاء الكلاب بعد ساعة فى يدى وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاونا بهم ثم زحف الناس بعضهم الى بعض واستمر القتال الى غروب الشمس فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك الى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفا شديدا وعزموا على الهرب الى حلوان وهمذان وجاء المنهزمون

من وقعة الكوفة الى بغداد ووصل الخبر بأن القرامطة قد ساروا الى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش الى الانبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك . ثم ان القرامطة قصدوا الانبار ولما وصلوها نزلوا غربى الفرات لأن أهل الانبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبو طاهر أصحابه الى الحديثة فجاءوه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلثمائة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الانبار وعقدوا الجسر وعبر عليه أبو طاهر ولكنه خلف عظم جيشه فى البر الغربى ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر الى الانبار خرج نصر الحاجب بجيش جرار فلحق بمؤنس المظفر فاجتمعا فى نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجيش مضطربا فى مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لو دبروا جيشهم تدبيرا حسناً أن يأخذوا أبا طاهر الذى كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد الى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغنموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف بن أبى الساج ففشلوا وانهزموا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك أن أمر أبو طاهر بقتل يوسف وجميع الاسرى وكانت عدة القرامطة فى هذه الخرجة ٢٧٠٠ ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ٢٧٠٠ وجاء انسان الى على بن عيسى الوزير وأخبره أن فى جير انه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالاخبار فأحضره وسأله فاعترف وقال ما صحبت أبا طاهر الا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ماليس لكم ولا بد لله من حجة فى أرضه وامامنا المهدى محمد بن فلان ابن فلان

ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثنى عشرية الذين يقولون بجهلهم ان لهم اماما ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر مايظنونه . فقال له الوزير قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك فقال وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أن أسلم قوما مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فأمر به فضرب ضربا شديدا ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاث أيام

أما أبو طاهر فانه سار من الأنبار وعثى فى أرض الجزيرة نهباً وقتلا الا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثرا وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد الى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم

وكانت هذه الانتصارات سبباً فى ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفا فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلا يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها فى جمع كثير وولوا أمرهم رجلا يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون الى المهدى وسار عيسى الى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث الى أعمال الموفقى وبنى بها دارا سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينهبون ويقتلون ويسبون . فأرسل المقتدر الى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب والى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة

صافيا البصرى فأوقع كل منهما بمن أرسل اليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى الله الناس شرهم وان كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى واتلاف المزارع

وفى سنة ٣١٧ فعل أبو طاهر ماهو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده الى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأنفذه الى هجر فخرج اليه أمير مكة فى جماعة من الاشراف فسألوه فى أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى فى بئر زمزم ودفن الباقين فى المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة . ولم يحصل فى التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت الى هذا الحد حتى ان المهدى عبيد الله العلوى لما علم ذلك كتب الى أبى طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت وان لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود الى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال ان الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم

المتغلبون وما كان منهم

فى عهد المقتدر اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة وهذا نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل

ففى الأندلس قام رجل الدولة الأموية عبد الرحمن الناصر وتسمى باسم أمير المؤمنين لأنه لم يعد هناك مايراعيه رجال الدولة الأموية من أمر الخلافة الاسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبعد الصيت حتى رهبته ملوك الافرنجة والروم وهادوه وأرسلوا اليه السفراء وكذلك فعل هو معهم

وفى افريقية قامت الدولة العلوية ومحت فى طريق غلبتها دولة الأدارسة من المغرب الأقصى والأغالبة من افريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التى أسسها عبيد الله المهدى بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجهة الى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها

وفى البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت العراق دائما على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر الى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة

وفى خراسان وماوراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتى فى تاريخهم

وفى الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم فى عهد المقتدر أما مافعله الروم بثغور المسلمين فى هذا العهد فهو فى غاية الشنعة ففى سنة ٣٠٣

أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن أمام الروم من الجيوش من يصدهم لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التى كانت متوالية

وفى سنة ٣٠٥ وصل رسولان من ملك الروم الى المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأكرما اكراما كثيرا وأدخلا على الوزير وهو فى أكمل أبهة وقد صف الاجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم انهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر الى ما طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميرا على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد الى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود وأطلق لهم أرزاقا واسعة وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه

ولم يدم هذا الصفاء طويلا بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالا وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة

وفى سنة ٣١٣ كتب ملك الروم الى أهل الثغور الاسلامية يأمرهم بحمل الخراج اليه فان فعلوا والا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال اننى صح عندى ضعف ولاتكم فلم يفعلوا فسار اليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية سنة ٣١٤ فأخربها وسبى منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوما ولما رأى أهل ملطية ما حل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة

وفى سنة ٣١٥ خرجت سرية من طرسوس الى بلاد الروم فوقع عليها

العدو وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبرا . وفيها سار الدمستق فى جيش عظيم من الروم الى مدينة دبيل وهى قاعدة أرمينية وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شئ على المسلمين حتى أصيب الرامى بسهم من سهام المسلمين فخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسى عال يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على مايراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا الى سور المدينة فنقبوا فيها نقوبا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالا شديدا حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل . وكانت هذه السنة سنة نجاح للمسلمين على الروم

وفى سنة ٣١٩ اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وأنقرة والفضل فى ذلك كله يرجع الى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه ثمل وكان والى الثغور فأمكنه بما أوقعه من الرعب فى قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد أن كادت تذهب من صدور الروم بمرة

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر فى جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لأنه حكم فيها النساء والخدم وبذر فى الأموال تبذيرا مفظعاً وكان يعزل الوزراء ويولى غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمه ولقهرمانته وخدمه ولا يأخذ الوزارة بالرشوة الا من هو عازم على الخيانة ليحصل على مادفعه فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولا ثم حاجة من ولاه لا يسألون أجاءت تلك الأموال من ظلم أو عدل وهذا نهاية الفساد فى الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها

قتل المقتدر

كان فى دولة المقتدر قائدان هما فى أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيوش وعليه المعول فى تسبيرها و يليه فى المرتبه محمد بن ياقوت وكان بينهما شئ من المنافسة

ففى سنة ٣١٩ قوى أمر محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم اليه رجال فقوى بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال هذا شغل لايجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فأجابه المقتدر وصرف محمدا عن الحجبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدهما عن الحضرة فأخرجا الى المدائن حسبما طلبه مؤنس وولى بدلهما ابراهيم بن رائق وأخاه محمدا الحجبة والشرطة وهذا كان بدء الوحشة بين المقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم فى النفوس أكبر الآثار

بلغ مؤنساً أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جاعة من القواد فى التدبير عليه فتنكر له مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب الى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فبقى الحسين فى الوزارة وكتب الى هرون بن غريب أحد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر الى بغداد وكذلك كتب الى محمد بن ياقوت يستقدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى فى التدبير عليه ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية فى دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاما له الى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها اليه فأبى فسبه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلما بلغ مؤنساً

الخبر سار نحو الموصل فى أصحابه ومماليكه وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد فى محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم وتمكن من الوزارة وولى وعزل

أما مؤنس فانه استولى على الموصل من يد بنى حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج اليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لاحسانه كان اليهم وعاد اليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه . فلما اجتمعت اليه العساكر انحدر الى بغداد فى شوال سنة ٣٢٠ فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالا عظيما الا أنه لم يشبعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس فى طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف فى قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل الى واسط فرده عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم اليه فرجع الى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه اليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريم مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله اليهم فلقيه على بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض وقال له أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط الى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ

جميع ماعليه حتى سراويله وتركوه مكشوفا الى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٣٨ سنة ثم تقدم مؤنس وأنفذ الى دار الخليفة من يمنعها من النهب

١٩ – القاهر

هو أبو منصور محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية سمها قتول بويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع فى ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ ابريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ما عدا أحمد بن اسماعيل السامانى

كيف انتخب

لما قتل المقتدر كان من رأى مؤنس اقامة ولده أبى العباس أحمد وقال انه تربيتى وهو صبي عاقل وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول فاذا جلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر واخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح فى قتل المقتدر عنزان فاعترض عليه أبو يعقوب اسحق بن اسمعيل النوبختى وقال بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود الى تلك الحال والله

لانرضى الا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا ومازال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له محمد بن المعتضد وهو أخو المكتفى فأجابه اليه على كره منه فانه كان يقول انى عارف بشره وسوء نيته ولكنه لاحيلة . فبايعوه واستحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلى بن بليق وأخذوا خطه بذلك واستقرت له الخلافة و بايعه الناس واستوزر أبا على ابن مقلة واستحجب على بن بليق

الحال فى عهد القاهر

كان القاهر كما قال مؤنس شريرا خبيث النية فانه فى أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت أنه بقى مكشوفا جزعت جزعا شديدا وامتنعت من الأكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيرا من الخبز والملح . أحضرها القاهر عنده وهى على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه وقالت لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ولم تعترف بشئ ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول أنها قد حلت أوقافها ووكلت فى بيعها فامتنعت من ذلك وقالت قد وقفتها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفى والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها وانما أوكل فى بيع أملاكى فلما علم القاهر بذلك أحضر القاضى والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل وقوفها جميعها و وكل فى بيعها

فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم . ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع فى التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبنا وخسة وشراهة نفس

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون بن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلثمائة ألف دينار على أن تطلق له أملاكه فأجيب الى طلبه وتم رفقاؤه سائرين الى السوس وسوق الأهواز فأقاموا بالاهواز وطردوا عماله فجهز اليهم مؤنس جيشا أخرجهم منها ثم طلبوا اليه الأمان فأمنهم وتوجهوا معه الى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فغلظ ذلك على الوزير ومؤنس المظفر وبليق الحاجب وابنه لأنهم ما حاربوا المقتدر الا من أجله وثبت عندهم أن محمد بن ياقوت يدبر عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوسا بدار الخلافة كوالدة المقتدر التى اشتد عليها المرض مما نالها من الضرب وعلم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ فى التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية فأفسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقلة به ووعده الوزارة محله فكان يكاتب القاهر بجميع الأخبار

أما هؤلاء الخصوم فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولكنهم لم يبدوا شيئاً من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأى الوزير أن يظهروا أن أبا طاهر القرمطى ورد الكوفة وأن على بن بليق صائر اليه ليمنعها منه فاذا دخل على القاهر

يودعه قبض عليه فكتب ابن مقلة الى الخليفة بما اتفقوا على اخباره به ولكن لم يتم ذلك لأن الخبر جاء القاهر سرا بما دبر عليه فاحتاط لنفسه وأنفذ الى الساجية فأحضرهم وفرقهم فى دهاليز الدار مستخفين فلما جاء ابن بليق وطلب الاذن لم يؤذن له ورد ردا قبيحا من الساجية فخرج هاربا من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال لا بد من المضى الى دار الخليفة حتى أعلم سبب ما فعل بابنى فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس فلما حضر أمر القاهر فقبض عليه وقبض كذلك على أحمد بن زيرك صاحب الشرطة ثم أرسل الى مؤنس فى داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفى الوزير ابن مقلة وأمر القاهر بالختم على دور مؤنس وبليق وابنه على وابن مقلة وأحمد ابن زيرك والحسن بن هرون ونقل دوابهم ووكل بحرمهم وأمر باحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجبة

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الاعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ماعلموا معه أنهم لا يسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم

ومن الغريب أن القاهر بعد أن تم له ما أراد أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبكرى الذى كان من قواد مؤنس فخانه

بقى من أعداء المقتدر الوزير ابن مقلة فانه كان مستترا لم يظهر عليه وكذلك الحسن بن هرون فكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويخوفانهم من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مرة وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلا تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكد وتارة فى زى امرأة ويغريهم به حتى

ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحفوا الى الدار وهجموا عليها من سائر الأبواب فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فلم يجده فقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للمعايب والقبائح ومن ذلك عدا ما تقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الانبذة وأما الجوارى والمغنيات فأمر ببيعهن على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم وضع له كل من يشترى كل حاذقة فى صنعة الغناء فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان وكان القاهر مشتهرا بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقا الى تحصيل غرضه رخيصا نعوذا بالله من هذه الأخلاق التى لا يرضاها العامة من الناس

٢٠ — الراضى

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها ظلوم ولد سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ ابريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليفة الى أن توفى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام

كيف انتخب

لما قبض القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذى فيه أبو العباس بن المقتدر فدلوهم عليه وكان هو ووالدته محبوسين فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلموا عليه

بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى ولقبوه الراضى وبايعه القواد

الحال فى عهده

كانت الحال تزيد ادبارا وانتكاسا واضطرابا فى عهده فأصحاب السلطان فى العراق يتنافسون ويقتتلون والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون فدولة الأندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى أعلن فى بلاده أنه أمير المؤمنين بعد أن لم يكن سلفه يتسمون بذلك وانما كانوا يسمون بالأئمة . والدولة العبيدية فى المغرب والمهدية قد اشتدت وطأتها وهى آخذة فى العلو وتحاول الاستيلاء على مصر . وبنو بويه ظهروا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والاهواز . والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الاسلامية وغزو الثغور وأهل بغداد مع هذا كله مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما فى أيديهم من البلاد العراقية كما ترى

كانت الكلمة العليا فى أول عهد الراضى لوزيره ابن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان كان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد فى سنة ٣٢٣ نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم فى البلاد بأسرها وأنه هو لم يعد بيده شئ فسعى به الى الراضى وأدام السعاية فبلغ ماأراده ففى خامس جمادى الأولى ركب جميع القواد الى دار الخليفة حسب عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد فى الحبس ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه . ظن ابن مقلة أن الوقت قد صفا له بحبس

ابنى ياقوت وأنه لم يعد له منافس فى سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذى أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فان المظفر كان يظن أن ابن مقلة سم أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقلة فقبضوا عليه وأرسلوا الى الراضى يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيرا فرد الاختيار اليهم فاختاروا للوزارة على بن عيسى وعرضوها عليه فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبدالرحمن فاستوزره الراضي وسلم اليه ابن مقلة فصادره

رأى عبد الرحمن أنه لا يمكنه ادارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفى فلم يقبل الراضى منه وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه عليا على مائة ألف

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخى فرأى قلة الأموال وانقطاع المواد فازداد عجزا الى عجزه وضاق عليه الامر ومازالت الاضاقة تزيد وطمع من بين يديه من العاملين فيما عنده من الأموال وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط الى بغداد وقطع البريدى والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيبته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما استتر استوزر الراضى أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان فى الوزارة كأبى جعفر فى وقوف الحال وقلة المال

ولما رأى الراضى ذلك اضطرته الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعا فقلده الراضى لقب أمير الامراء وولاه

الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر وأنفذ اليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد اليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شئ من الأمور وانما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها وكذلك كل من تولى امرة الامراء بعده وصارت الأموال تحمل الى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة مايريدون وبطلت بيوت الأموال وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم

كتب ابن رائق كتابا عن الراضى الى أبى الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيرا وكان يتولى الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه اذا استوزره جبى له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً

فكر ابن رائق فيما بيد أبى عبد الله البريدى من بلاد الأهواز وأشار على الراضى بالانحدار معه الى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل البريدى فان أجاب الى مايطلب منه والاقرب قصده عليه فأجاب الراضى وانحدر معه الى واسط ثم تهيأ للمسير الى الأهواز ولما علم بذلك البريدى جدد ضمان الأهواز كل سنة بثلثمائة وستين ألف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضى الى ذلك وعاد الى بغداد ولكن البريدى لم يحمل مما ضمن ولا دينارا واحدا

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدى وعدم التمكن من قهره ففكر فى أنه يستوزره فكتب اليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائبا عنه فى الوزارة

فأجاب وأرسل أحمد بن على الكوفى نائباً عنه فسارت أمور البريدى ببغداد على مايروق وضمت البصرة التى كانت فى يد ابن رائق الى أبى يوسف بن البريدى أخى أبى عبد الله فصار بيد البريديين الأهواز والبصرة وأرسل الى البصرة جندا للاستيلاء عليها وكان ذلك سبباً لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدى حيث رأي الأول أنه زاد البريدى سلطانا على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئاً ما ففكر فى ارسال جند الى الأهواز لقتال البريدي فاختار رجلين لقيادة الجند أحدهما بدر الخرشنى والثاني بجكم الديلمى فسار بجكم بالجند الى السوس واستولى عليه بمن معه من الأتراك والديالمة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبد الله البريدى ركب هو واخوته ومن يلزمه السفن وأخذ معه ما يبقى من الأموال و ٣٠٠ ألف درهم فغرقت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا الى الأبلة فأقام بها وكتب الى رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جدا فى مقاومته فصاروا كلما جهز اليهم جندا هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه الى واسط وكتب الى بجكم وهو فى الأهواز مستول عليها يأمره باللحاق به فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاوموهم مقاومة عنيفة حتى ردوهم منهزمين . ورأى البريدى أنه لا بد له من معين على ابن رائق وبجكم فسار الى عماد الدولة ابن بويه وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه فسير معه أخاه معز الدولة فاستولى على الأهواز بعد أن حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم الى واسط لم يستمر الصفاء بين البريدى ومعز الدولة لأن كلا طامع يريد أن يمكر بالثانى وكانت نتيجة المنافسة بينهما ان أنفذ بجكم

جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجند يسابور و بقيت الأهواز بيد البريدى ولم يبق بيد معز الدولة الا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الأهواز وأجلى عنها البريدى الى البصرة

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال ادبار لأن بجكم منع عنه مال واسط ولم يرسل اليه شيئا وكان يميل الى أن يحل محل ابن رائق فى امارة الامراء ببغداد وكان يسعى له فيها ابن مقلة وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقلة ما استقر عليه الأمر لبجكم فسار من واسط نحو بغداد فى غرة ذى القعدة سنة ٣٢٦ ولم يزل حتى ورد بغداد فقاتلته الجنود الرائقية ولكنهم انهزموا عنه فدخل بجكم بغداد فى ١٣ ذى القعدة ولقى الراضى من الغد وخلع عليه وجعله أمير الامراء فكتب الى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب اليهم العودة اليه ومناهم فجاءه أكثرهم وسقط ابن رائق بعد امارة استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و ١٦ يوما واستتر عن العيون

فى أول سنة ٣٢٧ منع ناصر الدولة بن حمدان ما ضمنه من مال الموصل فسار اليه الراضى هو وبجكم فأقام الراضى بتكريت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره . انتهز ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضى وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك الى الاسراع بمصالحة ناصر الدولة ابن حمدان على أن يعجل ٥٠٠ ألف درهم وعادا يريد ان بغداد فراسلهما ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والأهواز من يد ابن بويه فاتفق . . .

أن يسير الى الأهواز وأمده برجال وأن يسير بجكم الى بلاد الجبل ولكن علم بجكم أن البريدى يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه فى المهالك ويعود هو الى بغداد ليكون أمير الامراء فبدلا من أن يسير الى بلاد الجبل سار الى واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدى

هكذا كانت مدة الراضى منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن له تكون امارة الامراء ببغداد والاعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يعد لها شئ من الهيبة ولا نفوذ الكلمة

ومما زاد الأمر ادبارا ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وان وجدوا نبيذا أزاقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء والصبيان فاذا رأوا من يمشى مع امرأة أوصبى سألوه عن الذى معه من هو فان أخبرهم والاضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأرهجوا بغداد فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم امام الا اذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون الى المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضى بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره فمنه تارة انكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال

رب العزة العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيرا ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم الى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين الى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرمات الاولياء فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضربا وتشريدا وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوزا الامراء الى عامة الناس وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم الا ذلوا وفشلوا

أمر القرامطة

لم تزل القرامطة على حالهم فى الافساد والعيث واعتراض الحجاج وفى سنة ٣٢٢ أرسل محمد بن ياقوت رسولا الى أبى طاهر يدعوه الى طاعة الخليفة ليتره على ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك ماشاء من البلدان ويحسن اليه ويلتمس منه أن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الأسود الى موضعه بمكة فأجاب أبو طاهر الى أنه لا يعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب الى رد الحجر الأسود الى مكة

وسأل أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر . فسار الحاج الى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطى : ولكنه فى سنة ٣٢٣ اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة الى أبى طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا الى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسار أبو طاهر الى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها

وفى سنة ٣٢٦ أصابهم خلل وفساد فى سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبر وهو رجل كان من خواص أبى سعيد القرمطى والمطلعين على سره وكان له عدو من القرامطة يدعى أبا حفص فعمد ابن سنبر الى رجل من أصبهان وقال له اذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوى أباحفص فأجابه الى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبى سعيد وعلامات كان يذكرأنها فى صاحبهم الذى يدعون اليه فحضر عند أولاد أبى سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبوطاهر هذا هو الذى ندعو اليه فأطاعوه ودانوله حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان اذا كره رجلا يقول انه مريض يعنى انه قدشك فى دينه ويأمر بقتله وبلغ أباطاهر أن الأصبهانى يريد قتله ليتفرد بالملك فقال لأخوته لقد أخطأنا فى هذا الرجل وسأكشف حاله فقال له ان لنا مريضاً فانظر اليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بازار فلما رآها قال ان هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والافساد فيها

وفى عهد الراضى ظهرت الدولة الاخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الاخشيد ابن طغج وهو من موالى آل طولون وكان ملكه مصر سنة ٣٢٣ واستمر

الملك فى عقبه الى سنة ٣٥٨ وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم

(١) محمد الاخشيد بن طغج ٣٢٣ ـ ٣٣٤

(٢) أبو القاسم أنوجور بن الاخشيد ٣٣٤ ـ ٣٤٦

(٣) أبو الحسن على بن الاخشيد ٣٤٦ ـ ٣٥٥

(٤) أبو المسك كافور مولى الاخشيد ٣٥٥ ـ ٣٥٧

(٥) أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد ٣٥٧ ـ ٣٥٧

وفى عهد الراضى مات عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمهدية وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان يحاول ملك مصر فلم يتمكن

ختم الراضى الخلفاء فى أشياء منها أنه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل اليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين

وفى أيامه حدث اسم أمير الامراء فى بغداد وصار الى أمير الامراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شئ وكان الراضى أديباً له شعر مدون يحب محادثة الادباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحاً سخياً

توفى الراضى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (١٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) ابن الاثير

٢١ — المتقى

هو ابراهيم المتقى لله بن المعتضد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها خلوب بويع بالخلافة فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ (٢٤ ديسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفة حتى خلع فى ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ (١٢ أكتوبر سنة ٩٤٤) فكانت مدته ٤ سنوات و ١١ شهرا

كيف انتخب

لما مات الراضى كان بجكم بواسط فورد كتابه مع وزيره أبى عبد الله الكوفى يأمر فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفى فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته فجمعهم الكوفى واستشارهم فاتفقوا على ابراهيم بن المقتدر فبايعوه فى التاريخ السابق ولقب نفسه المتقى لله وسير الخلع واللواء الى بجكم بواسط

الحال فى عهده

كان بجكم أمير الأمراء والتدبير كله الى وزيره أبى عبد الله الكوفى وليس للخليفة ولا لوزيره سليمان بن الحسن شىء لم يطل زمن بجكم فى الامارة فان البريدى كان لا يزال يمنى نفسه بالاستيلاء على بغداد فأنفذ من البصرة جيشاً الى المذار فأنفذ اليه بجكم جيشاً يقوده قائد من كبار قواده اسمه توزون فالتقى الجيشان واقتتلا وكان النصر أولا لجيش البريدى فأرسل توزون الى

بجكم يطلب اليه أن يلحق به فسار اليه وصادف أن عادت الكرة لتوزون فأرسل الى بجكم يخبره بالظفر فأراد الرجوع الى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد فسار حتى بلغ نهر جور وحينذاك اغتاله رجل من الأكراد الذين يسكنون هناك وكان قتله مفرجا عن البريدى ومفيدا للمتقى لأنه استولى على داره وما فيها من الأموال فبلغ ما ناله ألف ألف ومائتى دينار . وكانت مدة امارة بجكم سنتين وثمانية أشهر

لما قتل بجكم انحدر الديلم الى البريدى فقوى بهم وعظمت شوكته فسار مريدا الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها فى ١٢ رمضان سنة ٣٢٩ ولقيه الوزير والقضاة والكتاب وأعيان الناس فأنفذ اليه المتقى يهنئه بسلامته . ولم يتم له ماأراده من التأمير لأن الأتراك والديالمة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد أن أقام بها ٢٤ يوما وحينئذ تقدم على الجند كورتكين الديلمى فسماه المتقى أمير الأمراء وخلع عليه . وكانت مدته مضطربة لأن عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينكر كورتكين على جنده مافعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقى أن كورتكين ليس عنده من المنعة مايزيل به الأضطراب أرسل الى ابن رائق وهو بالشام يطلب اليه الرجوع الى بغداد ليكون أمير الأمراء فعاد . أما كورتكين فانه خرج اليه وقابله بعكبرا فوقعت الحرب بينهما عدة أيام وفى ٢١ ذى الحجة سار ابن رائق بجيشه ليلا فأصبح ببغداد وقابل المتقى . أما كورتكين فانه لما أحس فى الصباح بسير ابن رائق تبعه الى بغداد وكانت عليه الهزيمة حين لاقته جنود ابن رائق فاختفى

وأخذ ابن رائق من استأمن اليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو ٤٠٠ وحينئذ خلع المتقى على ابن رائق وسماه أمير الامراء

تجددت أطماع البريدى لما علم بضعف الديلم والاتراك بسبب ما قتل منهم ابن رائق فأرسل جندا فى الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها وهرب المتقى وابنه وابن رائق الى الموصل أما أصحاب البريدي فانهم فعلوا ببغداد فعالا قبيحة قتلوا من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب فى بغداد ليلا ونهارا وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الأمر وغلت أسعار الحنطة والشعير وأصناف الحبوب وكان ذلك كله سبباً لوقوع الفتن والاضطراب وفى آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلا ونهارا واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس فى السواد وعلى الجملة فان هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدة

طلب المتقى من ناصر الدولة بن حمدان أن يعينه على البريديين فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته فلقيه هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما الى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق لأنه يريد أن يحل محله فى امرة الامراء وقد كان ذلك فان المتقى خلع عليه وسماه أمير الامراء فى أول شعبان سنة ٣٣٠ وخلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة

بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار الى بغداد معه المتقى ولما قاربها هرب عنها أبو الحسين بن البريدى وسار الى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوما ودخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش كثيرة

ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدى فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدى شديدة حتى انه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد الى المدائن فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه الى واسط لما فى أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقووا سار سيف الدولة الى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين الى البصرة وأقام سيف الدولة بواسط وكان يريد المسير الى البصرة فلم يمكنه لقلة المال عنده فكتب الى أخيه فلم يسعفه فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة فى أخيه ناصر الدولة وكان القواد الذين معه من الأتراك قد قلت عندهم هيبته لقلة المال فساربوا به وكبسوه ليلا فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة بالخبر سار عن بغداد الى الموصل وترك امارة الامراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشر شهراً وخمسة أيام

اختار المتقى بعد رحيل ناصر الدولة لامارة الامراء أكبر قواد الديلم واسمه توزون ولم يكن عنده شئ من حسن السياسة فاستوحش منه المتقى وخافه على نفسه فرأى أن يسير الى الموصل مستعينا بالحمدانيين فبارح بغداد اليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقاتله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنها بنو حمدان والمتقى معهم الى نصيبين . ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة وبين الحمدانيين والمتقي من جهة على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم وعاد توزون الى بغداد ولم يعد معه المتقى

بل استمر فى الموصل . ثم أرسل الى توزون يطلب منه أن يعود الى بغداد فأظهر توزون الرغبة فى ذلك وحلف للمتقى أنه لا يغدر به فاغتر المتقى بتلك اليمين وسار الى بغداد فلقيه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له الأرض وقال هاأنا ذاقد وفيت بيمينى والطاعة لك ثم وكل به وبعد ذلك سمله وخلعه وبذلك انتهت خلافة المتقى

---

٢٢ — المستكفى

هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بن المعتضد

لما قبض توزون على المتقى أحضر المستكفى اليه الى السندية وبايعه هو وعامة الناس

الدور الثانى

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه

يبتدئ هذا الدور من سنة ٣٣٤ الى سنة ٤٤٧ تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقى والسلطان الفعلى فى العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلا نبين

فيه أحوال الديلم وكيف تصرفت بهم الأحوال الى أن وصلوا الى ذروة العظمة باستيلائهم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة فى الجنوب الغربى من شاطىء بحر الخزر سهلها للجيل وجبالها للديلم وقصبتها روز بار

كانت فى القديم احدى الايالات الفارسية الا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسى بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة أو الجيل . ولما أذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالانسياح فى بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين للحكم الأسلامى مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم . وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالاسلام وكان بين الديالمة والطبريين سلم وموادعة

على هذا كان الحال فى صدر الدولة العباسية فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج الى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل فى بلادهم حتى كانت حادثة اقطاع المستعين محمد بن طاهر تلك القطائع التى يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الارض التى كانت مرافق لأهل تلك النواحى فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لايتم الا أن يكون على رأسهم رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذى قدمنا حديثه فى خلافة المستعين وكان مقيما بالرى فراسلوه فأقبل اليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ماطلبوا من المساعدة لاساءة كانت من عمال ابن طاهر اليهم . استولت هذه القوة على مدن طبرستان

ثم الرى وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات سنة ٢٧١ ثم ولى أخوه محمد ابن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه فى تلك البلاد سبباً لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الاسلامية بينهم

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن على الملقب بالأطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى فى بلادهم المساجد . وكان لآل سامان بازائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجيل — ثم انه جعل يدعوهم الى الخروج معه الى طبرستان فلا يجيبونه لاحسان عبد الله بن محمد بن نوح الذى كان أميرا على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق أن أحمد السامانى عزل عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد السامانى عبد الله بن محمد بن نوح فصلحت البلاد — ولما مات جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه اليهم ابن نوح فانتهز الحسن بن على الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم الى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان أكبر معينيه ليلى بن النعمان وما كان بن كالى الديلميان وكانا من عظماء الديلم وقوادهم استوليا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن على الأطروش. وممن عرف اسمه فى تلك الوقائع الحسن بن القاسم الداعى العلوى وكان ختن الأطروش

توفى الأطروش سنة ٣٠٤ وكان يلقب بالناصر لله وكان له من الأولاد الحسن

وأبو القاسم والحسين وكان الحسن مغاضبا له فلم يوله شيئا وولى ابنيه الآخرين فكانت طبرستان فى أيديهما بمعونة الحسن بن القاسم الداعى

وفى سنة ٣٠٩ قتل ليلى بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلى بلاد جرجان وكان أولاد الأطروش يكاتبونه المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلى بن النعمان وكان سبب قتله أنه سار الى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان فى هذه الاغارة حتفه وانهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية الى جرجان وبها أبو الحسين بن الناصر فانهزم عنها الى استراباذ ثم فارقها وقصد مدينة سارية وجعل باستراباذ ما كان بن كالى وهو ثانى القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع اليه الديلم وقدموه وأمروه عليهم وكان على يديه اعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها

كان من أصحاب ما كان قائد ديلمى اسمه أسفار بن شيرويه وكان سيء الخلق والعشرة فأخرجه ما كان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهو بكر بن محمد بن اليسع فأكرمه بكروسيره الى جرجان ليأخذها من يد أبى الحسن ابن كالى أخى ما كان وكان أخوه قد ولاه عليها وذهب الى طبرستان . وكان أبو الحسن قد اعتقل أبا على بن الأطروش عنده فتمكن أبو على من الخلاص من هذا الاعتقال واغتال أبا الحسن بن ما كان وأرسل الى جماعة القواد يخبرهم بقتله ففرحوا وبايعوا العلوى وألبسوه القلنسوة وكاتبوا أسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه اليهم فسار الى جرجان وضبطها وجاءه ما كان يحاربه فهزمه أسفار وصادف أن مات أبو على بن الأطروش وصفت جرجان لأسفار وأسفار هذا هو ثالث قواد الديلم . ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمرداويج بن زيار الجيلى

يستدعيه فحضر عنده وجعله أمير الجيوش وأحسن اليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعي وهو بالرى ومعه ما كان بن كالى فسار نحو طبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وما كان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لأسفار طبرستان والرى وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعا لصاحب خراسان وهو السعيد بن نصر السامانى وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهي قلعة على جبل شاهق فى حدود الديلم

عظمت جيوش أسفار وجل قدره فتجبر وعصى على الأمير السعيد صاحب خراسان وأراد أن يجعل على رأسة تاجا وينصب بالرى سرير ذهب للسلطنه ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسير اليه المقتدر جيشا فحاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد الى نيسابور أدرك أنه لا يمكنه أن يقاومه فراسله فى الصلح واتفقا على شروط منها حمل الأموال والخطبة باسمه فى بلاده

وبينما هو فى ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته اتحد مع سلار صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب أسفار . ومن حسن حظ مرداويج أن أكثر قواد أسفار كانوا ملوه لجبره وظلمه فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار سنة ٣١٦

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريرا من ذهب يجلس عليه وسريرا من فضة يجلس عليه أكابر قواده واذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفا بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد الا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفا شديدا ودخلت فى حوزته طبرستان وجرجان واجتهد

ما كان بن كالى أن يدافعه عنهما واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم الى مرداويج من كل ناحية لبذله واحسانه الى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثر الخرج عليه فلم يكفه ما فى يده فذهب الى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره الى نواحى حلوان وهى أول حدود العراق

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز وأرسل الى المقتدر رسولا يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر الى ذلك وقوطع على مئتى ألف درهم كل سنة

فى سنة ٣٢٠ أرسل مرداويج الى أخيه وشمكير وهو ببلاد جيلان يستدعيه اليه فجاءه واعتز به . والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى يؤكد فى كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذى ألفه باسم شمس المعالى قابوس بن وشمكير أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين فأما أحد الأصلين فورد انشاه الذى لا تجهل سيادته فى الجيل وأما الأصل الآخر فملوك الجبال الملقبون بأصفهبذية طبرستان والفرجوارجر شاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل بيت الملك الى ما يجمعهم والأكاسرة فى شعب واحد فان خاله هو الاصفهبذ رستم بن قارن بن شرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور بن كياس بن قباذ والد أنوشروان

ولما استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ما كان بن كالى وفارقوه لما ضاقت بهم الحال وهم على والحسن وأحمد

أولاد بويه ساروا الى مرادويج ومعهم جماعة من قواد ما كان . وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الاسلامية وهى التى تكون الدور الثانى من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالى فقد ذكر أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابى فى كتابه الذى سماه بالتاج أن بويه ينتهى نسبة الى بهرام جور الملك والبيرونى السابق ذكره يرجح أن هذا النسب انما ظهر لهم بعد ثبوت ملكهم والا فتلك الأمم ليست معروفة بحفظ الأنساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا بأنها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة اليهم مع أنه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقاً حتى يصل بها الى قباذ ملك الفرس

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على علىّ والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحى وولى على بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساروا الى الرى وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد . صادف أن كان مع على بن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها فلما حمل الى على أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقى ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه

ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب الى أخيه وشمكير والى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير الى أعمالهم وان كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تصل الى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على

وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ الى على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ويطوى المنازل فسار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الرى واستعاد التوقيعات التى كانت معهم وأراد أن ينفذ خلف على بن بويه من يرده فقال العميد انه لا يرجع طوعا وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه . وصل على الى الكرج وأحسن الى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا الى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلد وحسن سياسته . وافتتح قلاعا كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعها الى استمالة الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه .

ولما كان مرداويج بالرى أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم على بن بويه ووصلهم وأحسن اليهم حتى مالوا اليه وأحبوا طاعته وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على انفاذ أولئك القواد فكتب اليهم والى على يستدعيهم اليه وتلطف بهم ودافعه على واشتغل بأخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعا فجبى على مال الكرج واستأمن اليه شيرزاد وهو من أعيان قواد الديلم فقويت نفسه وسار بمن معه الى أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت . بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده من البلاد واغتم لذلك غما شديدا ولكن رأى أن يحتال فراسل عليا يعاتبه ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ولا يكافه سوى الخطبة له فى البلاد التى يستولى عليها وجهز بعقب تلك الرسالة أخاه وشمكير فى جيش كثيف ليكبس عليا وهو مطمئن الى الرسالة المتقدمة فعلم على بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين وتوجه الى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فانهزم عنها أبو بكر

من غير قتال وقصد رامهرمز فاستولى على على أرجان فى ذى الحجة سنة ٣٩٠ فاستخرج منها أموالا قوى بها . جاءته وهو بها كتب من أبى طالب زيد بن على النوبندجانى يستدعيه ويشير عليه بالمسير الى شيراز ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مؤنته ومؤنة أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم فتردد على أولا ثم عزم على المصير فسار نحو النوبندجان فى ربيع الآخر سنة ٣٢١ فلقى بها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها الى اصطخر خوفا أن يقع بين ياقوت ومرداويج لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله فى الطريق ياقوت بجيوشه فكان النصر لعلى وانهزم ياقوت هو ومن معه وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره فى ذلك اليوم وهو صبى لم تنبت لحيته وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل على الأسرى أحسن معاملة وخيرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن اليهم ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ونادى فى الناس بالأمان وبث العدل وأقام لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه أمر استرضاء الجنود والتودد اليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل الى خليفة بغداد الراضى بالله والى وزيره ابن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وبذل الف الف درهم فأجيب الى ذلك وأنفذت اليه الخلع واللواء

لما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار الي أصبهان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكرا الى الأهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه اذا قصده فلا يبقى له طريق الى الخليفة ويقصده هو من ناحية أصبهان

ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم . فسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيذج فى رمضان ثم استولت على رامهرمز فى شوال سنة ٣٢٢ ثم استولت على الأهواز وأجلت عنها ياقوتا . بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز فكاتب نائبه يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الأمر بينهما على أن ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جيلة وأنفذله أخاه الحسن رهينة

من حسن حظ ابن بويه أن مرداويج قتل بعد ذلك سنة ٣٢٣ تمردت عليه جنوده الاتراك لأنه كان كثير الاساءة اليهم ويفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره فاتفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألبين عليه من الاتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكرنا أنهما توليا امرة الامراء بالعراق وياروق وابن بغرا ومحمد بن ينال الترجمان . ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش فأما الأتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم . وأما الديلم فذهبوا الى وشمكير وهو بالرى وأطاعوه . وكان من نتيجة قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده وسار الى أخيه بفارس

سارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثا قوة على بن بويه بفارس وقوة وشمكير ابن شيرويه بالرى وقوة السامانية بخراسان وماوراء النهر . أما ياقوت الذى كان بالأهواز فضعفت قوته جدا حتى لم تعد قادرة على حفظ مامعها فضلا عن مصادمة غيرها أما القوة الحية النامية فهى قوة ابن بويه . سير أخاه الحسن الى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على إصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقى هو وشمكير يتنازعان هذه البلاد وهى أصبهان وهمذان وقم وقاشان

وكرج والرى وكنكور وقزوين وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة وانجلى عنها نواب وشمكير

خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه الى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولا بادارة اقليم فارس وأخوه الحسن مشغولا ببلاد الجبل وأخوهما الأصغر أحمد لاشغل له فسيره على الى الأهواز فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقى وانهزم بجكم الى واسط

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير الى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد بن بويه يسير الى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ والخليفة بها هو المستكفى بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة وفى هذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب فلقب عليا صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيسا دينيا لا أمر له ولا نهى ولا وزير وانما له كاتب يدبر اقطاعاته واخراجاته لاغير وصارت الوزارة لمعز الدلة يستوزر لنفسه من شاء

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بنى العباس ويوليها علويا لأن القوم كانوا شيعة زيدية لأن التعاليم الأسلامية وصلت اليهم على يد الحسن ابن زيد ثم على يد الحسن الأطروش وكلاهما زيدى فكانوا يعتقدون أن بنى العباس

قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له انك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة شئ البتة الا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته

كان السلطان فى ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبنى أمية والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد تلقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد الى ما وصلت اليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد

وببلاد افريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة والقائم بالأمر منهم اسماعيل المنصور وهو ثانى خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين

وبمصر والشام للاخشيديين والأمير منهم أنوجور بن محمد الاخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى

وبحلب والثغور لسيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ثم باسم معز الدولة من بعده

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدى

وبفارس والأهواز لعلى بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى وكان يلقب بأمير الامراء لانه أكبر بنى بويه

وبالجبل والرى لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى

وجرجان وطبرستان يتنازعها وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان

وبخراسان وماوراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخارى ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسى

هذه هى القوى الكبرى التى كانت لأسر ملوكية فى الرقعة الاسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقا غريبا بعد أن كان متماسك الأعضاء يرجع كله الى حاضرة كبرى تجمع شتاته . ومما يستحق النظر أن العنصر العربى لم يبق له شىء من الملك الاما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فانهما من عنصر عربى ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الاتراك ولم يكن لهما استقلال سياسى بل كان أمر بنى بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة فى الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسى

لم يمكث المستكفى فى الخلافة بعد استيلاء معز الدولة الأربعين يوما وخلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليه فصمم على خلعه ففى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر عند الخليفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الأموال وساق الديلميان المستكفى ماشياً الى دار معز الدولة فاعتقل بها

ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ وقبض على أبى أحمد الشيرازى كاتب المستكفى . وكانت مدة المستكفى سنة واحدة وأربعة أشهر

٢٣ ــ المطيع

هو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد فهو ابن عم المستكفى بويع بالخلافة ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ (٢٩ يناير سنة ٩٤٦) ولم يزل خليفة الى أن خلع فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣ (٧ اغسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته ٢٩ سنة وخمسة أشهر غير أيام ولم يكن له من الأمر شىء والنفوذ فى حياته للملوك من آل بويه وهم

(أولا) معز والدلة

وهو أحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر اخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا فانه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم فى مدة ذكرها لهم فاضطر الى ضبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها التى للسلطان وأصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدى العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الاتباع فان الذى أخذوه زاد خرابا فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب

القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين فى الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم اذا عجز الحاصل تممه بمصادراتها . ثم ان معز الدولة قد فوض حماية كل موضع الى بعض أكابر أصحابه فاتخذه مسكناً فاجتمع اليه الاخوة وصار القواد يدعون الخسارة فى الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك فان اعترضه معترض صاروا أعداء له فتركوا وما يريدون فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والحوادث وأكثر من اعطاء غلمانه الأتراك والزيادة لهم فى الاقطاع فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام فى أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد الى البصرة فمات أكثرهم فى الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز

فكان نظام الاقطاعات أول فساد بالعراق لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الارض واصلاحها وتنميتها

السبب الثانى من أسباب الفساد اختلافان . الاول اختلاف عنصرى بين الاجناد فانهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات فكان بينهما فى أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة لخوف الناس على مابيدهم من المال وقد كادت هذه المنازعات تؤدى سنة ٣٣٥ الى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم فانهم لما رأوا تقدم الأتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد

وساعده على ذلك أخواه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الاتراك فاصطنعهم دون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم ثم أطلق للاتراك اطلاقات زائدة على واسط والبصرة فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الأموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم . وأما الاختلاف الثانى فهو اختلاف دينى تأججت ناره ببغداد نفسها و بما جاورها من بلا العراق فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون فى معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاءت هذه الدولة وهى متشيعة غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجدله من قوة الحكومة أنصارا فقد كتب على مساجد بغداد سنة ٣٥١ ماصورته (لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوما عليه لايقدر على المنع وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة اعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ماحمى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن الامعاوية ففعل ذلك

وفى سنة ٣٥٢ أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكاكينهم و يبطلوا الاسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قبابا عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن فى البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن على رضى الله عنهما ففعل الناس

ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم

وفى ثامن عشر ذى الحجة أمر معز الدولة باظهار الزينة فى البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الاعياد فعل ذلك احتفالا بعيد الغدير يعنى غدير خم وهو الموضع الذى يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه عن على من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وضربت الدبادب والبوقات وكان يوما مشهودا

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر وهو الأكثر عددا ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها فيهون أمرها ماعدا مامنشؤه الدين منها وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فانها يشتد توهجها اذ اوجدت محضأ يحركها لغاياته ولا أشد من يد السلطان فى تحريكها فاذا لعبت فيها اصبعه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك فى الاحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك الا بعد أن ينغرس فى نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل الى ذلك لأن احدى الفرقتين تحترم شخصاً والأخرى تلعنه فأنى تتفقان

ومع ماأدت اليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله فى شمالى بلاده وجنوبيها أما فى الشمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان وكل يريد الاغارة على مابيد الآخر

ففى السنة الاولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقى من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التى خدع بها ناصر

الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ماغنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف الف دينار وقتلوا كثيرا ممن اتهموه . واضطر ناصر الدولة أن يطلب من معز الدلة الصلح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد فقبل ذلك معز الدولة

وفى سنة ٣٣٧ سار معز الدولة الى الموصل مريدا الاستيلاء عليها فسار عنها ناصر الدولة الى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولى على جميع مابيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والرى وطلب منه المدد فاضطر الى مصالحة ناصر الدولة فترددت بينهما الرسل واستقر الامر على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام فى كل سنة ثمانية ألف الف درهم ويخطب فى بلاده لأولاد بويه الثلاثة واذذاك رجع معز الدولة الى بغداد

ولما قامت فتنة روزبهان الديلمى على معز الدولة أراد ناصر الدولة اعادة الكرة على بغداد فسير اليها أحد أولاده فى جيش لكنه لم يتمكن مما أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه ولى وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة يطلب الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار اليه معز الدولة سنة ٣٤٧ فلما قارب الموصل سار عنها ناصر الدولة الى نصيبين فاستولى عليها معز الدولة ثم سار الى نصيبين ففارقها ناصر الدولة الى ميافارقين فاستولى عليها معز الدولة

ولما رأى ناصر الدولة ما صار اليه سار الى أخيه سيف الدولة بحلب فلقيه

أخوه وبالغ فى اكرامه وراسل معز الدولة فى طلب الصلح فامتنع معز الدلة من تضمين ناصر الدولة لاخلافه مرة بعد أخرى فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفى ألف درهم وتسعمائة ألف درهم وكان ذلك في محرم سنة ٣٤٨

وانما أجاب معز الدولة الى الصلح لأنه ضاقت عليه الأموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج واحتجوا بأنهم لا يصلون الى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة فاضطر بسبب ذلك الى الانحدار وأجاب الى الصلح وانحدر الى بغداد وعاد ناصر الدولة الى الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سبباً فيما يأتى ذكره من الضعف أمام الروم

لم يكن هذا وحده الذى يشغل معز الدولة بل كان له فى الجنوب أيضا مشاغل كبرى فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدى أميرا عليها باسم معز الدولة ولكن نفسه كانت تطمع للاستقلال بها وألا يرسل الى معز الدولة خراجا فكان معز الدولة يرسل اليه الجيوش والبريدى يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين

وفى سنة ٣٣٦ عزم معز الدولة أن يسير الى البريدى بنفسه فسار اليه سالكا البرية فأرسل اليه القرامطة ينكرون عليه مسيره الى البرية بغير اذنهم فلم يجبهم على كتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا ولما وصل الى الدرهمية استأمن اليه كثير من عسكر البريدى وهرب هو الى هجر والتجأ الى القرامطة وملك معز الدولة البصرة

وكانت نتيجة مافعله مع القرامطة والاستهانة بهم أن جاءوا الى البصرة سنة ٣٤١ ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبى

وزير معز الدولة

وفوق هذا فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهى قوة عمران بن شاهين وكان فى أول أمره جا بيا فجبا جبايات ثم هرب الى البطيحة وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضا عامرة فاتفق فى أيام كسرى ابرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضاً بخلاف العادة فعجز عن سدها فتبطح الماء فى تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية ولم يفعل من بعده شيئاً ثم جاء الاسلام فاشتغلوا بالحروب والجلاء ولم يكن للمسلمين اذ ذاك دراية بعمارة الأرضين فلما القت الحروب أوزارها واستقرت الدولة الاسلامية فى قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحى ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء اليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الأرز. جاء عمران الى هذه البطائح خوفا من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصناً بها واقتصر على ما يصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع اليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوى بهم وحمى جانبه من السلطان فلما خاف أن يقبض استأمن الى أبى القاسم البريدى فقلده حماية الجامدة ونواحى البطائح وما زال يجمع الرجال الى أن كثر أصحابه وقوى واستعد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التى بالبطيحة وغلب على تلك النواحى فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشا لمحاربته قائده وزيره أبو جعفر الصيمرى فانتصر أبو جعفر انتصارا باهرا وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة بوفاة أخيه الاكبر عماد الدولة فاضطر الى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لاصلاحها ففارق البطيحة وكان ذلك منفساً

عن عمران فزاد قوة وجرأة فأنفذ اليه معز الدولة جيشا ثانيا فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ما كان فيه من السلاح فقوى وطمع أصحابه فى السلطان فصاروا اذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة فان أعطاهم والا ضربوه وكان الجند لابد لهم من العبور عليهم الى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق الى البصرة الا على الظهر فشكا الناس ذلك الى معز الدولة فكتب الى وزيره المهلبى بالمسير الى واسط وأمده بالجيوش فزحف الى البطيحة وضيق على عمران فانتهى الى المضايق التى لا يعرفها الا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبى وكان عمران قد جعل الكمناء فى تلك المضايق فلما تقدم المهلبى خرج عليه وعلى أصحابه الكمناء ووضعوا فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا وألقى المهلبى نفسه فى الماء فنجا سباحة وأسر عمران القواد والاكابر فاضطر معز الدولة الى مصالحته واطلاق من عنده من أهل عمران واخوته فأطلق عمران من فى أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدلة البطائح فقوى واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من سنة ٣٢٩ الى سنة ٣٦٩ أى أربعين سنة كان فيها شجا فى حلق بنى بويه لا يقدرون منه على شىء وانتقل الملك منه الي أعقابه ومواليهم الى سنة ٤٠٨ وهذا ثبتهم

(١) عمران بن شاهين ٣٢٩ _ ٣٦٩

(٢) الحسن بن عمران ٣٦٩ _ ٣٧٢

(٣) أبوالفرج بن عمران ٣٧٢ _ ٣٧٣

(٤) أبو المعالى بن الحسن بن عمران ٣٧٣ _ ٣٧٣

(٥) المظفر بن على وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب ٣٧٣ _ ٣٧٦

(٦) مهذب الدولة أبو الحسن علي بن نصر ابن أخت المظفر ٣٧٦ ـ ٤٠٨

(٧) أبو الحسين بن مهذب الدولة ٤٠٨ ـ ٤٠٨

(٨) عبد الله بن نسى بالتغلب ٤٠٨ ـ ٤٠٨

ثم صارت البطيحة متغلبا لكثير من الاقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة الى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت الى خلفاء بغداد

لم يكن عهد معز الدلة ببغداد الا شرا كله من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان . ولما أحس بقرب منيته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته فى كل مايفعل و بطاعة عضد الدولة ابن عمه لأنه أكبر منه سناً وأقوم بالسياسة . ثم أدركته منيته فى ١٣ ربيع الآخر سنة ٣٥٦

ومما حصل من حوادث أهل بيته فى عهده وفاة عمه عماد الدولة على بن بويه سنة ٣٣٨ باصطخر ولما لم يكن له ولد ذكر طلب من أخيه ركن الدولة أن يرسل اليه ابنه فناخسرو الملقب عضد الدلة فأجابه فولاه عهده ولما توفى قام عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت امرة الامراء الى أخيه ركن الدولة الحسن

(ثانياً) عز الدولة بختيار

وهو ابن معز الدولة أحمد بن بويه ولى العراق بعد وفاة أبيه واستمر فى سلطانه الى أن خلعه ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ فكانت مدته ١١ سنة قضى منها سبع سنين فى خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد فى سلطانه أسوأ حالا منها فى سلطان أبيه فانه اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين وشرع فى ايحاش كاتبى أبيه أبى الفضل العباس بن الحسين وأبى الفرج محمد بن العباس مع أن

أباه أوصاه بتقريرهما لكفايتهما وأمانتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم شرها الى اقطاعاتهم وأموا لهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر الى مرضاتهم واقتدى بهم الاتراك فعملوا مثل ذلك ولم يتم له على سبكتكين ما أراد من اغتياله لاحتياطه واتفاق الاتراك معه وخرج الديلم الى الصحراء وطالبوا بختيار باعادة من سقط منهم فاحتاج أن يجيبهم الى ما طلبوا وفعل الاتراك أيضا مثل فعلهم

وفى أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر فى الامر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف ألف ومئتى ألف درهم كل سنه وكذلك مات سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه أبو المعالى شريف. ومات كافور الاخشيدى صاحب مصر سنة ٣٥٦ وبموته اضطرب أمرها وتهيأت الفرصة للفاطميين . ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة على بلاد الرى يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه بيستون بن وشمكير سنة ٣٥٧ ومات أيضا نقفور الذى ملك الروم وهدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال

حال الثغور الاسلامية فى عهد المطيع

كانت الثغور الاسلامية لذلك العهد فى حوزة سيف الدلة على بن حمدان الذى كان متغلبا على حلب والعواصم وديار بكر فكان هو الذى يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها. وكان قد ولى هذه الثغور مولاه نصرا فكانا يدًا وبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة عدو كانت الخلافة الكبرى تحتد له وتهتم أعظم الاهتمام بأمره

فى سنة ٣٣٧ سار سيف الدولة بنفسه الى بلاد الروم فلقوه فاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس. وفى السنة التى تليها دخل غازيا فكان له النصر أولا ولكنه توغل فى البلاد فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضايق فهلك من كان معه من الجند أسرا وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبى وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة فى عدد يسير

وفى سنة ٣٤١ ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وخربوا المساجد

وفى سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم وقتل فى تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق وقد عظم مقتله على أبيه فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار اليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث فى شعبان فاشتد القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبة للمسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته والدمستق عند الروم الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده

وفى سنة ٣٤٥ سار سيف الدوله الى بلاد الروم فى جيوشه حتى وصل الى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع الى أذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيرا ثم عاد الى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جموعهم وساروا الى ميافارقين بديار ربيعة فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا فى البحر الى طرسوس فأوقعوا بأهلها وقتلوا منهم ١٨٠٠ رجل وأحرقوا القرى التى حولها . ثم غزوها مرة ثانية سنة ٣٤٨ وغزوا الرها أيضاً ففعلوا بها الأفاعيل وعادوا سالمين لم يكلم أحد منهم كلما

وفى سنة ٣٤٩ سار سيف الدولة الى بلاد الروم فى جمع عظيم فأثر فيها آثارا شديدة وفتح عدة حصون و بلغ الى خرشنة ثم ان الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس ان الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبل منهم و كان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال انه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف فى أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو فى ٣٠٠ رجل بعد جهد وهذا من سوء رأى المستبدين

وفى سنة ٣٥٠ سار قفل عظيم من أنطاكية الى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكيه فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب أنطاكيه وبه جراحات

وفى سنة ٣٥١ غزا الدمستق عين زربة وهى من أحصن مدن الثغور فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيخا ولا صبيا وأفلت قليل منهم هربوا على وجوههم فماتوا فى الطرقات وفتح حول عين زربة ٥٤ حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان وقد حصل أن حصنا من هذه الحصون التى فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا ٤٠٠ رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك الامن يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية . وكان صاحب طرسوس قد خرج فى ٤٠٠٠ رجل فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وكان صاحب

طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا ما أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم

وفى هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سيف الدولة منهزما بعد أن قتل أكثر أهل بيته وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التى كانت بظاهر حلب وسبي من حلب وحدها بضعة عشرة ألف صبي وصبية وقتل أكثر من ذلك ولما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر الدمستق باحراق الباقى وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة أيام ثم أراد الانصراف عنها فانصرف عازما على العودة . وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين الا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحيانا بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر

وفى سنة ٣٥٣ حصر الدمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنه وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة . ثم ان انسانا وصل الى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدلة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية فى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم الى بلادهم . وبعد تراجع الأسعار عاد ملك الروم الى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقاوم الطرسوسيون مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة أشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثر بينهم الوباء فاضطروا الى الرحيل

وفى سنة ٣٥٤ ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها الى بلاد الروم وكانوا نحوا من مائتى ألف انسان ثم سار الى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم اليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم مايطيقون ويتركوا الباقى ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة اليها حتى رخصت الأسعار وتراجع اليها كثير من أهلها ودخلوا فى طاعة الملك وتنصر بعضهم . ومن غرائب العقول أن يجرى هذا كله بثغور الاسلام والخلاف والشقاق قد استحكم أمرهما بين ولاة المسلمين وأمرائهم

وفى سنة ٣٥٨ دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار فى البلاد الى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبي من فيها ثم قصد حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتخريبا وملك ثمانية عشر منبرا فأما القرى فكثير لايحصى وأقام فى بلاد الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماشاء ولا يمنعه أحد الا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحيانا وأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة فى قلوب المسلمين وقد عاد ملك الروم بعد ذلك ومعه من السبى مائة الف رأس ولم يأخذوا الا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه

وكانت هذه الحوادث الجلى سببا لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير العام لحماية الثغور الاسلامية فتطوع منهم عشرون الفا عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد بن اسمعيل بن القفال الشاشى أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر . ومما يحزن أن هذا الجيش المتطوع اضطر الى المرور ببلاد الجبل التى فى حوزة ركن الدولة وهو ديلمى يكرهه أهل خراسان و يعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم

وفى سنة ٤٥٩ ملك الروم مدينة أنطاكية وهى حاضرة الثغور وأضخمها وأخذوا منها سبيا يزيد على عشرين الفا كلهم شباب صبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاءون . ولما تم لهم ملك أنطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفى غلام سيف الدولة وكان أبو المعالى شريف بن سيف الدولة يحاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عن الروم أما هؤلاء فجاءوا وحصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك

وفى سنة ٣٦١ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا فى الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبى تغلب بن حمدان فى ذلك حركة ولا سعى فى دفعه ولكنه حمل اليه مالا كفه به عن نفسه فسار جماعة من أهل تلك البلاد الى بغداد مستنصرين وقاموا فى الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبى فاستعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزير من انفتاح الطريق

وطمع الروم وأنه لامانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وغلقت الأبواب وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحى الكوفة فخرج اليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين (صاحب البطيحة) وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الاسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنفر العامة ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لايحصون كثرة وكتب بختيار الى أبى تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره باعداد الميرة والعلوفات ويعرفه عزمه على الغزو فأجابه باظهار السرور واعداد ما طلب منه ثم أنفذ بختيار الى المطيع لله يطلب منه مالا فقال المطيع ان الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمنى اذا كانت الدنيا فى يدى وتجبى الى الأموال وأما اذا كانت حالى هذه فلايلزمنى شىء من ذلك وانما يلزم من البلاد فى يده وليس لى الا الخطبة فان شئتم أن أعتزل فعلت وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال الى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠ الف درهم فاحتاج الى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قبض بختيار المال صرفه فى مصالحه وبطل حديث الغزو

وفى سنة ٣٦٢ كانت واقعة بين الدمستق وبين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد فاستعد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبة الله فواقع الدمستق فى مضيق لاتجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوسا الى أن مرض سنة ٣٦٣ فبالغ أبو تغلب فى علاجه

وجع الاطباء له فلم ينفعه ذلك ومات

هذه كانت الحال فى خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الثغور الاسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة فى قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون

ومما حصل فى عهد المطيع من الحوادث انتقال خلفاء الفاطميين الى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلى عليها وذلك سنة ٣٦١ فى عهد الخليفة المعز لدين الله معد الفاطمى

موت المطيع

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فلج فأشار عليه سبكتكين مقدم الاتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بدا فخلع نفسه فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣

٢٤ ــ الطائع

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد ولد سنة ٣١٧ وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيع (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة الى أن خلع فى ٢١ رجب سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بنى بويه وهم

أولا — عز الدولة بختيار بن معز الدولة الى سنة ٣٦٧

ثانياً — عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه الى سنة ٣٧٢

ثالثاً — صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة الى سنة ٣٧٦

رابعاً — شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة الى سنة ٣٧٩

خامساً — بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة

ويعاصره في بلاد الاندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦) وهشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩) وهو الذى كان يحجبه المنصور بن أبي عامر

وبافريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيرى الصنهاجى نيابة عن الفاطميين الى سنة ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور يوسف الى سنة ٣٨٦

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معد الفاطمى الى سنة ٣٦٥ وخلفه ابنه العزيز بالله نزار الى سنة ٣٨٦

وباليمن من آل زياد أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم الى سنه ٣٧١ ثم عبد الله ابن اسحاق الى سنة ٤٩٠

وبصنعاء من آل يعفر عبد الله بن قحطان الى سنة ٣٨٧ وهو آخر أمراء هذه الدولة

وبحلب سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة الى سنة ٣٨١

و بالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الى سنة ٣٦٩ ثم أبو طاهر ابراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدوله الى سنة ٣٨٠ وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلى أمير بنى عقيل

وفى ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بنى حمدان وأول هذه الدولة أبو على الحسين بن مروان الذى ابتدأ ملكه سنه ٣٨٠

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور السامانى (٣٦٦—٣٨٧)

وبجرجان الدولة الزيادية والامير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير الى سنة ٣٦٦ وخلفه شمس المعالى قابوس بن وشمكير الى سنة ٤٠٣

وقد ابتدأت فى أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزنة وجدت على أطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التى غربى نهر جيحون وكانت دولة الاتراك الايلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر . وأما بلاد فارس والأهواز والرى والجبال والعراق فهى بيد بنى بويه يتناوبونها كما سيأتى توضيحه

ويعاصر الطائع بفرنسا لونار الى سنة ٩٨٦ ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان الى سنة ٩٨٧ ثم هو فى كابات أول الاسرة الكاباسيانية الى سنة ٩٩٦

وباستريا أول ملك من جماعة المار غراف وهو ليو بولد الاول كونت دو بابنبرج (٩٨٢ - ٩٩٤)

ولى الطائع وأمر بختيار مضطرب لأن الاتراك وفى مقدمهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذى كان سبباً لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التى كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم فكتب بختيار الى عمه ركن الدولة بأصبهان والى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن يساعداه على الاتراك فجهز اليه ركن الدولة جندا مع وزيره ابن العميد وأما عضد

الدوله فكان ميالا الى ملك العراق فتربص ببختيار الدوائر. كرر اليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحثه فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قد بلغ ببختيار مايرجوه سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه ارادة الاستيلاء على العراق فسار الى واسط ومنها الى بغداد فتغلب على عساكر الاتراك فى ١٤ جمادى الاولى سنة ٣٦٤ ودخل بغداد ظافرا . وكان يريد القبض على بختيار فوسوس الى جنده أن يثوروا عليه و يشغبوا و يطالبوه بالأموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار مايسكتهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت الى شكواهم و يغلظ فى معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياما وحينئذ استدعى بختيار هو واخوته اليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الامارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالاحسان اليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لأنه كان منافيا لبختيار وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسى وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جدا كاتبه بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذى استاء أيضاً مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل اليه ركن الدولة يقويه على ماهو بسبيله ويخبره أنه سائر بنفسه الى العراق لاخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سبباً لاضطراب الأمر على عضد الدولة ولم يقبل فى ذلك قول قائل لانه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حبا شديدا ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه الاعادة بختيار الى ملكه والمسير الى فارس

لم يطل الأمر الا بمقدار ما توفى ركن الدولة سنة ٤٦٦ فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بعهد منه وما عتم أن تجهز الى بغداد وأرسل الى بختيار يطلب

منه الطاعة وأن يسير عن العراق الى أى جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج اليه من مال وسلاح فأجاب بختيار الى ذلك وسلم الى عضد الدولة وزيره الامير محمد بن بقية ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد ببغداد وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأس الجسر فى شوال سنة ٣٦٧ وهو الذى رثاه أبو الحسين الانبارى بقصيدته المشهوره التى أولها

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق أنت احدي المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معها من ملك أبيه وعمه ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئناً وأزال عنها الدولة الحمدانية وبث سراياه فى طلب أبى تغلب الحمدانى فهرب أبو تغلب على وجهه الى بلاد الروم وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر الى الرقة وجعل باقيها فى يد سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب و بذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجبال والرى ثم دخلت فى حوزته جرجان سنة ٣٧١ أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير

لم يقم فى آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة واقداما وكان عاقلا فاضلا حسن السياسة كثير الاصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأى محباً للفضائل واهباً باذلا فى موضع العطاء مانعا فى مواضع الحزم ناظرا فى عواقب الامور وهو الذى بنى على مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم سورا الا أنه كان مع ذلك فخورا يميل الى اللهو واللعب ومن شعره

ليس شرب الكاس الا فى المطر ... وغناء من جوار فى السحر

غانيات سالبات للنهى ناغمات فى تضاعيف الوتر

مبرزات الكاس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر

عضد للدولة وابن ركنها ملك الاملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير . ومن فضله أنه كان لا يعول فى أموره الاعلى الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقا الى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به حكى عنه أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم الى القاضى ليسمع تزكيته و يعدله فقال له ليس هذا من أشغالك انما الذى يتعلق بك الخطاب فى قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهى الى القاضى وليس لنا ولا لك الكلام فيه ومتى عرف القضاة من انسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة . وكان يخرج فى ابتداء كل سنة شيئاً كثيرا من الاموال للصدقة والبر فى سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك الى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه الى مستحقيه وكان يوصل الى العمال المتعطلين ما يقوم بهم و يحاسبهم اذا عملوا . أما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك فى تاريخ العلوم فى الدول الاسلامية

ومما يعد من سيئاته أنه أحدث فى آخر أيامه رسوما جائرة فى المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الامتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجرا خاصا وكان يتوصل الي أخذ المال بكل طريق . توفى عضد الدولة فى شوال سنة ٣٧٢

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبى كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان اخوته وبنو أعمامه متفرقين فى الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزيل بفارس — وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان

مكث صمصام الدولة قائما بأمر العراق والاضطراب لاحق به من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه فانه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير اليه جيشا كانت عاقبته الهزيمة

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذ بن دوستك وهو من الأكراد الحميدية وكان ابتداء أمره أنه كان يغزو كثيرا بثغور ديار بكر وكان عظيم الخلقة وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب الى ثغور ديار بكر وأقام بها الى أن استفحل أمره وقوى وملك ميافارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعض أصحابه الى نصيبين فاستولى عليها فجهز اليه صمصام الدولة العساكر فانهزمت وقوى أمر باذ وغلب جيوش الديلم ثم سار الى الموصل فملكها وحدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد وازالة الديلم عنها فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشاً عظيما مستوفى العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباذ ديار بكر والنصف من طور عبدين

كانت هذه الاضطرابات والمشاغل سبباً لأن شرف الدولة صاحب فارس تجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق فسار بجيشه سنة ٣٧٥ فاستولى على الأهواز من يد أخيه أبى الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار الى البصرة فملكها. بلغ خبره صمصام الدولة فراسله فى الصلح فاستقر الأمر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ويكون هذا نائبا عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق وسيرت اليه الخلع من الطائع لله فلما

وردته الرسل بذلك ليحلفوه عاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عليها ونفذ تلك العزيمة فلما وصل واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه على اللحاق بأخيه والدخول فى طاعته فسار اليه فقبض عليه شرف الدولة وسار الى بغداد فدخلها فى رمضان سنة ٣٧٦ وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهرا

ومن أحداث هذا البيت فى عهده وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدلة سنتين وثمانية أشهر وقد ابتدأ عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى الى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام . ومن فضائل شرف الدولة أنه منع الناس من السعايات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا

وكانت وفاة شرف الدولة فى جمادى الآخرة سنة ٣٧٩

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر . ولاول تجددت الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت الى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة الى الأتراك فاشتد الأمر على الديلم ومع ماحصل من الصلح بين الفريقين فان الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم . وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا

وفى سنة ٣٨١ قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك أن الأموال قلت عنده فشغب عليه الجند فأطمعه وزيره فى أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فأرسل

الى الطائع وسأله الاذن فى الحضور ليجدد العهد به فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل اليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فانزله عن سريره والخليفة يقول انا لله وإنا اليه راجعون و يستغيث فلا يلتفت اليه وأخذ مافى داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضى فى ذلك

من بعد ما كان رب الملك مبتسما ... الى أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى ... ياقرب ماعاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانيـة ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع الى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع

---

٢٥ — القادر

هو أبو العباس أحمد القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويع بالخلافة ١٢ رمضان سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٧٤) واستمر خليفة الى أن توفى فى غاية ذي الحجة سنة ٤٢٢ (١٨ دسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما

كان أبو العباس لما مات أبوه اسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له

منازعة فى ضيعة وطال الأمر بينهما ثم ان الطائع مرض مرضا أشفى منه ثم أبل فسعت اليه بأخيها وقالت له انه شرع فى طلب الخلافة عند مرضك فتغير رأيه فيه وأرسل فى القبض عليه فلما وصلت اليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار الى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبى الحسن على بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه و بالغ فى خدمته وكان ذلك فى سنة ٣٧٩ فاقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فأجمع رأيه ورأى مستشاريه على أبى العباس فأرسل اليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه الى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقيل على المنبر (اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه . ولما وصلت الرسل الى القادر بالله انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمته خير قيام وحمل اليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله الى بغداد فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان و بايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان

والقادر هو ثالث خليفة عباسى لم يكن أبوه خليفة

معاصرو القادر من الملوك

كان الخليفة بالأندلس هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد الى سنة ٣٩٩ ثم خلفه محمد المهدى بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الى سنة ٤٠٣ وقد ثار عليه سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت بينهما خطوب الى أن قتل المهدى وانتهت مدة المستعين سنة ٤٠٨ ثم كانت

البلاد الأندلسية ميدانا للنزاع بين أعقاب الأمويين والعلويين من ذرية ادريس بن عبد الله فكانت الحال هناك فى إضطراب يشبه ما كان فى الشرق أو يزيد عليه

وكان الأمير بافريقية من آل زيرى النائبين عن الدولة الفاطمية المنصور ابن يوسف بلكين الى سنة ٣٨٦ ثم ابنه باديس الى سنة ٤٠٦ ثم المعز بن باديس الى سنة ٤٥٣ وكان الخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية العزيز بالله نزار الى سنة ٣٧٦ ثم ابنه الحاكم بأمر الله منصور الى سنة ٤١١ ثم ابنه الظاهر لاعزاز دين الله الى سنة ٤٢٧

وفى عهده ابتدأت الدولة النجاحية بزبيد على أطلال الدولة الزيادية وكان ابتداؤها على يد المؤيد نجاح سنة ٤١٢ وهو مولى موالى آل زياد وأصله عبد حبشى سمت به همته الى أن تولى ملك تهامة اليمن وما اليها وقد استمر ملكها فيه وفى أعقابه الى سنة ٥٥٤ وهذا ثبتهم

(١) المؤيد نجاح	٤١٢ ـ ٤٥٢
فترة على الداعى الصليحى	٤٥٢ ـ ٤٧٣
(٢) سعيد الأحول بن نجاح	٤٧٣ ـ ٤٨٢
(٣) جياش بن نجاح	٤٨٢ ـ ٤٩٨
(٤) فاتك بن جياش	٤٩٨ ـ ٥٠٣
(٥) منصور بن فاتك	٥٠٣ ـ ٥٥٧
(٦) فاتك بن منصور	٥١٧ ـ ٥٣١
(٧) فاتك بن محمد بن فاتك	٥٣١ ـ ٥٥٤

وانتقل الملك عنهم الى الدولة المهدية وسيأتى حديثها اذ ذاك

أما الجزيرة الفراتية وما اليها من حوض الفرات فكانت منقسمة الى ثلاث امارات وهى ديار ربيعة وحاضرتها الموصل وديار بكر وحاضرتها آمد وديار مضر وحاضرتها الرقة

ففى عهد القادر ظهرت الدولة العقيلية التى أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد العقيلى بالموصل ولم يكن له تمام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمى الا أن النفوذ الفعلى كان لأبى الذواد ولم يزل كذلك حتى توفى سنة ٣٨٦ فخلفه أخوه حسام الدولة المسيب بن المقلد . وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها الى أن قتل سنة ٣٩١ فخلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرواش بن المقلد ومن أهم حوادثه السياسية أنه خطب للحاكم بأمر الله العلوى صاحب مصر بأعماله كلها وهى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد لله الذى انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب واطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر بالله القاضى أبا بكر بن الباقلانى شيخ الأشعرية ببغداد الى بهاء الدولة يعرفه ذلك فأكرم بهاء الدولة القاضى وكتب الى نائبه ببغداد يأمره أن يسير لحرب قرواش فسار عميد الجيوش لحربه ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله

وقد استمرت هذه الدولة العربية بالموصل الى سنة ٤٨٩ وانتهت على يد السلاجقة كما انتهت الدولة الديلمية وهذا ثبت ملوكها

(١) حسام الدولة المقلد بن المسيب ٣٨٦ – ٣٩١

(٢) معتمد الدولة قرواش بن المقلد ٣٩١ - ٤٤٢

(٣) زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد ٤٤٢ - ٤٤٣

(٤) علم الدولة أبو المعالى قرواش بن بدران بن المقلد ٤٤٣ - ٤٥٣

(٥) شرف الدلة أبو المكارم مسلم بن قرواش ٤٥٣ - ٤٧٨

(٦) ابراهيم بن قرواش ٤٧٨ ٤٨٦

(٧) على بن مسلم بن قرواش ٤٨٦ - ٤٨٩

وفى ديار بكر ظهرت دولة الأكراد من آل مروان على يد مؤسسها أبى على الحسن بن مروان قام بالأمر سنة ٣٨٠ بعد خاله باذ الذى قدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن الى أهلها وألان جانبه لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يزل ملكا الى أن قتل سنه ٣٨٧ فخلفه أخوه ممهد الدولة أبو منصور ابن مروان الى أن قتل سنة ٤٠٢ فتولى بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان وهو واسطة عقد آل مروان فان أيامه طالت وأحسن السيرة جدا وكان مقصودا من العلماء فى كافة الأقطار فكثروا ببلاده وممن قصده أبو عبد الله الكازرونى وعنه انتشر مذهب الشافعى رحمه الله بديار بكر وقصده الشعراء فاجزل مواهبهم وبقى كذلك الى سنة ٤٥٣ وكانت الثغور معه آمنة وسيرته فى رعيته أحسن سيرة وولى بعده ابنه نظام الدولة نصر الي سنة ٤٧٢ ثم منصور بن نصر الى سنة ٤٨٩ وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها

أما ديار مضر فقد استولى عليها لأول عهد القادر بكجور الذى كان واليا على دمشق للعزيز بالله الفاطمى خليفة مصر وفى سنة ٣٨٧ عزله عنها فتوجه الى الرقة فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق

فى الانضمام اليه وكاتب أيضاً باذ الكردى المتغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود الى طاعته ويعطى مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم الى شىء فبقى بالرقة يراسل جماعة من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فاجابوه وحينئذ أغرى العزيز بالله نزارا صاحب مصر على قصد حلب فأجابه وأرسل اليه العساكر تتصرف بأمره ولكنه لم ينجح لأن سعد الدولة استعان عليه بوالي أنطاكية الرومى وبالعرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله ثم سار سعد الدولة الى الرقة فاستولى عليها من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم ان سعد الدولة هلك بعقب ذلك فأرسل أهل الرحبة الى بهاء الدولة يطلبون اليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فانفذلهم أميرا تسلمها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة • ولم تمكث الحال على ذلك كثيرا فان البلاد انتقلت الى حوزة العلويين أصحاب مصر وصار يخطب لهم بالرقة والرحبة الا أن سلطانهم كان اسميا والنفوذ الى رؤساء القبائل المضرية فكان فيها أولا أبو على بن ثمال الخفاجى ثم استولى عليها عيسى بن خلاط العقيلى ثم صار أمرها الى صالح بن مرداس الكلابى وكان محسنا للرعيه ويدعو للعلويين

أما حلب فكان السلطان بها لأول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدوله بن حمدان وكان قد عصى عليه بكجور الذى تقدم ذكره وهو أحد مماليك أبيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوى ولكنه لم يفز وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك أن سعد الدولة أراد أن يقصد دمشق ليأخذها من يد العزيز بالله فمات عقب خروجه سنة ٣٨٢ وعهد لابنه أبى الفصائل وأوصى به لؤلؤا

أحد مماليك أبيه سيف الدولة فلما توفى سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤ العهد على الاجناد

كان خليفة مصر لا يزال يتطلع الى الاستيلاء على حلب فسير اليها جيشاً من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كانت عساكره كثيرة ولا قبل للؤلؤ بمقاومتها استنجد بملك الروم بسيل فأرسل الى نائبه بأنطاكية يأمره أن ينجد أبا الفضائل فسار اليه بحلب حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصى . ولما سمع منجوتكين الخبر سار الى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبى الفضائل وعبر اليهم العاصى وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار الى أنطاكية فنهب بلدها وقراها وأحرقها . وأنفذ أبو الفضائل الى بلد حلب فنقل ما فيه من الغلال وأحرق الباقى اضرارا بعساكر مصر . وعاد منجوتكين الى حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ الى رؤساء المصريين يبذل لهم مالا ليردوا منجوتكين عنهم هـذه السنة بعلة تعذر الأقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد الى دمشق ولـكن ذلك لم يعجب العزيز بالله وكتب باعادة الـكرة على حلب وأرسل الأقوات من مصر الى طرابلس بحرا ومنها الى العسكر فنازل المصريون حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهرا فقلت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ الى مراسلة ملك الروم معتضدا به وقال له متى أخذت حلب أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب فجاء ملك الروم منجدا له فلما علم منجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج اليه أبو الفضائل ولؤلؤ . ثم سار بسيل الى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبها وسار الى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه وأقام عليها نيفا وأربعين ليلة ولما أيس منها عاد الى بلاده . ولما

علم العزيز بتلك الأخبار عظم الأمر عليه ونادى فى الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك

لم يزل الأمر لأبى الفضائل حتى سنة ٤٠٢ حيث غزاه صالح بن مرداس الكلابى وكان السلطان الحقيقى فى حلب للؤلؤ وكان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوى بمقتضى اتفاق عقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدمة . غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيرا ولكن صالحا أطلقه مقابل مائتى ألف دينار ومائة ثوب واطلاق كل أسير عنده من بنى كلاب . ثم ان غلاما لابن لؤلؤ كان يتولى القلعة غدر به وكاتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لأستاذه فخرج ابن لؤلؤ من حلب الى صاحب أنطاكية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلهم من قبله حتى صارت بيد انسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك قدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم وولى الظاهر غضى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشا له على قتله فقتله

وفى سنة ٤١٤ اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طيئ وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان على أن يكون من حلب الى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة الى مصر لحسان ودمشق لسنان . فقصد صالح حلب فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الحلبيون يحبون صالحا لاحسانه اليهم ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم فملك من بعلبك الى عانة وأقام بحلب ست سنين وفى سنة ٤٢٠ جهز الظاهر صاحب مصر جيشا سيره الى الشام لقتال صالح وحسان وكان مقدم الجيش أنوشتكين البربرى والالتقاء عند

طبرية فقتل فى الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح فجاء الى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد استمرت الدولة المرداسية بحلب الى سنة ٤٧٢ وهذا ثبت ملوكها

(١) صالح بن مرداس	٤١٤ ـ ٤٢٠
(٢) شبل الدولة أبو كامل نصر	٤٢٠ ـ ٤٢٩
الفاطميون	٤٢٩ ـ ٤٣٤
معز الدولة أبو علوان طمل بن صالح	٤٣٤ ـ ٤٤٩
الفاطميون	٤٤٩ ـ ٤٥٢
رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة	٤٥٢ ـ ٤٥٣
معز الدولة (ثانيا)	٤٥٣ ـ ٤٥٤
أبو ذؤابة عطية بن صالح	٤٥٤ ـ ٤٥٤
رشيد الدولة (ثانيا)	٤٥٤ ـ ٤٦٨
جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة	٤٦٨ ـ ٤٦٨
أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة	٤٦٨ ـ ٤٨٢

وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التى تقدم ذكرها

فى المشرق

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتتزلزل جوانبها . كان أميرها نوح بن منصور وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الأمر فيها شهاب الدين هارون بن سليمان بن أيلك خان المعروف ببغراخان وكانت دولته غضة جديدة أمام دولة رثت بكثرة الاختلاف ففى سنة ٣٨٣ غزا

بغراخان نوحا فى بخارى بممالأة أبى الحسن سمجور أمير خراسان لنوح وكان القصد أن يملك الأول ما وراء النهر كله والثانى اقليم خراسان فسار بغراخان نحو بخارى واستولى على بلادها شيئا بعد شئ . ثم نازل بخارى فاختفى نوح وملكها بغرا ونزلها وخرج منها نوح مستخفيا فعبر النهر الى آمد وأقام بها ولحق به أصحابه يريد اعادة الكرة على بخارى وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل اضطر بسببه للانتقال نحو بلاده وبينما هو سائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد الى دار ملكه وولى الترك بعد بغراخان ابنه ايلك خان — ثم مات بعقب ذلك نوح سنة ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور وبايعه الأمراء والقواد

ولما بلغ أيلك خان وفاة نوح سار الى سمرقند وسير الجنود لأخذ بخارى يقدمها فائق أحد القواد السامانية قبلا فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور ابن نوح أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمرت الحال على ذلك الى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبدالملك وهو صبى صغير وأعقب ذلك موت فائق وهو مدبر الأمر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتكينية قد بزغ بخراسان فسار ايلك خان الى بخارى وأظهر لعبدالملك المودة والموالاة والحمية له فظنوه صادقا ولم يحترسوا منه وخرج اليه بكتوزون وبقية الأمراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة سنة ٣٨٩ فلم يدر عبد الملك مايصنع فاختفى فنزل ايلك دار الامارة وبث الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه بافكند فمات بها وهو آخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بموته دولتهم كأن لم تغن بالأمس . وكانت هذه الدولة قد انتشرت

ودخل فى حوزتها من حدود حلوان الى بلاد الترك بما وراء النهر وكانت من الدول العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الايكاخانية فأخذت منهم ولايات ما وراء النهر وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان

الدولة السبكتكينية

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهى مدينة عظيمة و ولاية واسعة فى طرف خراسان وهى الحد بين خراسان والهند و يلفظها الخاصة غزنين وكان صاحب جيشها اسحاق بن البتكين وكان من ضمن غلمانه سبكتكين وهو المقدم عنده وعليه مدار أمره قدم بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أستاذه اسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأى والصرامة وعادمعه الى غزنة فلم يلبث اسحاق أن توفى فاجتمع جنده على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال وكان يدخر من أقطاعه ما يعمل منه طعاما لهم فى كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم استولى على مدينة بست وقصدار ولما رأى ملك الهند جيبال مادهاه وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فخرج هذا اليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند الى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه الى ذلك على مال يؤديه اليه و بلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه واستقر الأمر على ذلك ولما أبعد ملك الهند ورأى نفسه فى مأمن خاس

بعهده فسار سبكتكين نحوه حتى ورد لفان وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الاسلام ولما علم بذلك جيبال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة فقوى سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الأفغان والخلج

وفى سنة ٣٨٤ لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الأمير نوح ابن منصور أن يكل أمرها الى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه فكتب اليه وهو بغزنة يطلعه على الأحوال ويأمره بالمسير اليه لينجده وولاه خراسان فأجاب الى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها ولما بلغ قائدى نوح الخبر وهما فائق وأبو على بن سيمجور راسلا فخر الدولة بن بويه يستنجدانه ويطلبان منه عسكرا فأجابهما الى ذلك وسير اليهما عسكرا كثيرا وكانت الواقعة بين هذين الجيشين بنواحى هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التى انهزم اليها أبو على وفائق فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة ولقب أباه ناصر الدولة فأحسن السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح الى بخارى وسبكتكين الى هراة

لما علم أبو على ببارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع فى استردادها فقدم اليها ومعه فائق فخرج اليهما محمود وقاتلهما ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهما قاصدا أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى ممدا لابنه فتقابلت جنوده مع جنود أبى على بنواحى طوس فانهزم أبو على هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين

وفى سنة ٣٨٧ توفى سبكتكين بين بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام عشرين سنة وكان عادلا خيرا كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء وعهد بالملك من بعده لابنه اسمعيل وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند وأرسل اليه محمود من نيسابور يقول له ان أباك انما عهد اليك لبعدى عنه وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وانفاذ مايخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعياً الى أن محمودا قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له الملك عاد الى بلخ ومحمود هذا هو ثالث آل سبكتكين وواسطة عقدهم لقبه الخليفة القادر بيمين الدولة . وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له فى خراسان فأزال عنها اسم السامانيــة وخطب للقادر بالله سنة ٣٨٩ وجعل أخاه نصرا قائدا لجند نيسابور وسار هو الى بلخ فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الأطراف على طاعته

كان عهد محمود عهد ارتفاع وقوة فوسع أملاكه فقد كانت فى الأصل بلاد غزنة ثم انضم اليها بلاد الغور وهى جبال وولاية بين هراة وغزنة وأكبر مافيها قلعة يقال لها فيروزكوه . ثم أدخل جزأ عظيما من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصل الى قشمير فأسلم صاحبها على يده وأسلم كذلك كثير من ملوك الهند وقد عبر نهر الكنج فى فتوحاته . ومن الجهة الأخرى ضمت اليه خراسان والرى والجبال ودانت له ملوك طبرستان وجرجان ولم يزل فى عزه وسلطانه الى أن أدركته الوفاة سنة ٤٢١ وعهد بالملك من بعده لابنه محمد وكان أصغر من مسعود ولقب بجلال الدولة الا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود فسار اليه وأخذ

الملك منه وتوفى القادر بالله والملك فى آل سبكتكين لمسعود بن محمود بن سبكتكين وقد استمرت الدولة فى أعقاب هذا البيت الى سنة ٥٨٢ وهذا ثبت ملوكها

(١)	سبكتكين	٣٦٦ ـ ٣٨٧
(٢)	اسماعيل بن سبكتكين	٣٨٧ ـ ٣٨٨
(٣)	يمين الدولة محمود بن سبكتكين	٣٨٨ ـ ٤٢١
(٤)	جلال الدولة محمد بن محمود	٤٢١ ـ ٤٢١
(٥)	ناصردين الله مسعود بن محمود	٤٢١ ـ ٤٣٢
(٦)	شهاب الدولة مودود بن مسعود	٤٣٢ ـ ٤٤٠
(٧)	مسعودبن مودود	٤٤٠ ـ ٤٤٠
(٨)	بهاءالدولة أبوالحسن على بن مسعود بن محمود	٤٤٠ ـ ٤٤٠
(٩)	عز الدولةعبد الرشيد بن محمود	٤٤٠ ـ ٤٤٤
(١٠)	جمال الدولة فرخزاد بن مسعود بن محمود	٤٤٤ ـ ٤٥١
(١١)	ظهير الدولة ابراهيم بن عبدالرشيد	٤٥١ ـ ٤٩٢
(١٢)	علاءالدولة مسعود بن ابراهيم	٤٩٢ ـ ٥٠٨
(١٣)	كمال الدولة شير زاد بن مسعود	٥٠٨ ـ ٥٠٩
(١٤)	سلطان الدولة ارسلان بن مسعود	٥٠٩ ـ ٥١٢
(١٥)	يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود	٥١٢ ـ ٥٤٧
(١٦)	معز الدولة خسروشاه بن بهرام شاه	٥٤٧ ـ ٥٥٥
(١٧)	تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه	٥٥٥ ـ ٥٨٢

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية

كان بجرجان من الدولة الزيادية شمس المعالى قابوس بن وشمكير الى سنة ٤٠٣ ثم فلك المعالى منوجهر بن بستون بن وشمكير الى سنة ٤٢٠ ثم أنوشروان بن قابوس الى سنة ٤٣٤ وهو الذى انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية

أما السلطان ببلاد العراق فكان لأربعة ملوك من آل بويه يتلو أحدهم الآخر

الأول بهاء الدولة أبو نصر عضد الدولة وهو الذى ولى القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وآذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته سنة ٤٠٣ وكان فى سلطانه العراق والأهواز وفارس وكرمان

الثانى سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه بل كان عهد ضعف واستكانة فان جنده ما كانوا يطيعونه وكثيرا ما شغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سببا لقيام أخيه وهو

الثالث شرف الدولة أبو على بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك العراق فخطب له ببغداد فى آخر المحرم سنة ٤١٢ ونفى سلطان الدولة عن العراق فذهب الى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الاخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان الا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فانه توفى سنة ٤١٥ بشيراز وخلفه ابنه أبو كاليجار وفى ربيع الأول سنة ٤١٦ توفى شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلا حسن السيرة

الرابع جلال الدولة أبوطاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان اذ ذاك بالبصرة والياً عليها وطلب الى بغداد فلم يصعد اليها وانما بلغ واسطا وأقام بها ثم عاد الى البصرة فقطعت خطبته وخطب لابن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة الذى كان صاحب الأهواز وكان بها وراسله الجند فى ذلك فوعدهم أن يجيء ولكنه تأخر لما كان بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان من الحروب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلطان وكثر شر الأتراك بها ولما رأى ذلك عقلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصعد اليهم فيملك أمرهم وخطبوا باسمه فى جمادى الأولى سنة ٤١٨ فما عتم أن صعد اليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال ما يضمن راحتهم وراحته فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونه وكان ينازعه أخوه أبوكاليجار . وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع

لم يكن للخليفة القادر بالله شئ من السلطان كمن مضى فى عهد سلاطين ابن بويه الا أنه ضعف البيت المالك أحياله شيئاً من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك فقد كان حليما كريماً خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتابا على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين واذا وصل اليه حال أمر فيه بالحق

وكان فى زمنه أحداث عظام فى جميع الأصقاع الاسلامية من قيام دول وابادة أخرى وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه الا ما كان من البلاد التى تحت يد الدولة العلوية المصرية فانها كانت تخطب باسم أئمتها ومع ذلك

فان المعز بن باديس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده

توفى القادر بالله فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوما

٢٦ – القائم

هو أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقى خليفة الى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ (٢ ابريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته ٤٤ سنة و ٢٥ يوما

كان سلطان العراق لأول عهده جلال الدولة بن بهاء الدولة ولم يكن أمره فى سلطانه على سداد لكثرة شغب الغلمان والأتراك عليه طالبين مرتباتهم التى لم يكن يقدر على أدائها فى أوقاتها لقلة الوارد عليه فلم تجئ سنة ٤٢٦ الا وقد انحل أمر الخلافة والسلطنة جميعا ببغداد حتى ان بعض الجند خرجوا الى قرية يحيى فلقيهم أكراد فأخذوا دوابهم فعادوا الى قراح الخليفة فنهبوا شيئا من ثمرته وقالوا للعمال فيه أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه واجتهد فى تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه والى الشهود بترك الشهادة والى الفقهاء بترك الفتوى فلما

رأى ذلك جلال الدولة سأل أولئك الأجناد ليجيبوه الى أن يحملهم الى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا اليها أطلقوا وعظم أمر العيارين وصاروا يأخذون الأموال ليلا ونهارا ولا مانع لهم لأن الجند يحملون على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر العرب فى البلاد فنهبوا النواحى وقطعوا الطريق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا الى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء فى المقابر

ولكثرة تشغيب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطا فى أمر الصلح ومع ما ظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيبته سأل الخليفة القائم سنة ٤٣٢ أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ اليهم السلاطين فى مثل ذلك فأفتى بالجواز القاضى أبو الطيب الطبرى والقاضى أبو عبد الله الصيرفى والقاضى ابن البيضاوى وأبو القاسم الكرخى وامتنع من الفتيا قاضى القضاة أبو الحسن الماوردى وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردى من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد الى دار المملكة كل يوم . فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفا وأقام منقطعا من شهر رمضان الى يوم عيد النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفا فأدخله وحده وقال له قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالا وجاها وقربا منا وقد خالفتهم فيما خالف هواى ولم تفعل ذلك الا لعدم المحاباة واتباع الحق وقد بان لى موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزاء ذلك اكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت اذن الحاضرين اليك ليتحققوا عودى الى ماتحب

فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالانسان قول الحق حسبما يعتقد لايخشى فى ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان

قضى جلال الدولة حياته فى منازعات بينه وبين جنوده و بينه و بين أبى كاليجار الى أن توفى سنة ٤٣٥ بعد ملك مدته ١٦ سنة و ١١ شهرا قال ابن الأثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ملكه الى هذه الغاية علم أن الله على كل شئ قدير يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء وكان يزور الصالحين و يقرب منهم وزار مرة مشهدى على والحسين عليهما السلام وكان يمشى حافيا قبل أن يصل الى كل مشهد منهما نحو فرسخ يفعل ذلك تدينا

استقر فى الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محيي الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولاسلطانه أوفر بل كان النزاع كثيرا مايستحكم بين الديلم عنصر السلطان و بين الاتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبى كاليجار سنة ٤٤٠

بويع بالسلطان بعده ابنه أبو نصر خسر وفيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب الى ذلك وقال لايجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى فأبى الا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر سلطانا حتى ورد الى بغداد السلطان طغرلبك فأزاله عن ملكه ونفاه الى قلعة السيرجان و بذلك انقضت مدة آل بويه التى لم يكن فيها شئ من الصلاح للبلاد بل زادتها فسادا وفرقة بما أظهرته من التشيع فى بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيرا ما يقع بين الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع فى بغداد لا يغيرها الخليفة

اضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيرا ما يدعو الى وقوف بعضهم ازاء بعض متحاربين وعلى الجملة فان البلاد التى استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم وأجل هذه المدة عهد عضد الدولة فناخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبرى عشيرة السلاجقة تنسب الى مقدمها سلجوق بن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم فى بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة الى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولدله ابنه سلجوق بذلك الاقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الجند (شباسى) وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لماترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر الى ديار الاسلام واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزا الى عزه وأقام بنواحى جَنْد (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك

فى تلك الأوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهرون بن أيلك خان وقد استولى هرون على بعض بلاده فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد سلجوق فأنجده بابنه ارسلان فى جمع من أصحابه فقوى بهم السامانى واسترد من

خصمه ما أخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية

لم يزل سلجوق بجند حتى توفى وكان له ثلاثة من الأولاد وهم ارسلان وميكائيل وموسى

فأما ميكائيل فغزا غزوة فى بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغو وطغرلبك محمد وجغرى بك داود فأطاعتهم عشيرتهم

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها فخافهم أميرها فأسأ جوارهم وأراد الايقاع بهم فالتجؤا الى بغراخان ملك تركستان وأقاموا فى بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلبك وداود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان حذرا من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلبك وأسره فثار داود فى عشائره ليخلص أخاه فأنفذ اليه بغراخان عسكرا فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلبك من الاسر وانصرف الى جند

لما انقرضت دولة السامانية سنة ٣٨٩ وملك ايلك خان عظم محل ارسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية فى حبس ارسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع ارسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما ايلك فهزماه وبقيا ببخارى

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر الى بخارى للاستيلاء على بلاد ماوراء النهر هرب على تكين من بخارى وأما ارسلان بن سلجوق وجماعته فانهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتهم ماهاله وأراد أن يستعمل معهم الحيلة فكاتب ارسلان واستماله ورغبه فورد عليه فلم يكن من محمود الا أن قبض

عليه وسجنه فى قلعة ونهب خركاهاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم فى بلاد خراسان فلم يطمئنوا بها من جور العمال عليهم فسار منهم أهل ألفى خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها الى اذربيجان ودخلوا مراغة سنة ٤٢٩ وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء

رأي ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم ورأى الغز أنهم لا مقام لهم هناك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت الى الرى ومقدمهم بوقا وطائفة أخرى سارت الى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش

أما الذين ذهبوا الى الرى فانهم استولوا عليها ونهبوها نهبا فاحشا وسبوا النساء و بقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرم الى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى

وأما الذين ساروا الى همذان فانهم ملكوها أيضاً من يد بنى بويه سنة ٤٢٠ ولما دخلوها نهبوها نهبا منكرا لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظاً منهم وحنقاً عليهم حيث قاتلوهم أولا وأخذوا الحرم وضربت سراياهم الى أسد اباذ وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد

ولم يزالوا على هذا الأفساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج ابراهيم ينال أخو طغرلبك الى الرى فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فعلوا بها أولا ولأن ابراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لانهم كانوا له ولأخيه طغرلبك رعية فساروا الى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوها ونهبوا أعمالها الى أن

بذل لهم سليمان مالا ليفارقوا عمله . اذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية فانهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه ووصل قرواش الى مدينة السن وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب النجدة واستنجد أيضاً دبيس ابن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب والأكراد

عمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب المال ولما اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيرا فخرج الغز وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا اليها متفقين فوضعوا السيف فى أهلها وأسروا كثيرا ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثنى عشر يوما يقتلون وينهبون

لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان الى طغرلبك يشكوان ما حل بالبلاد من تلك الفئة

بقى قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار الى الموصل وبلغ الخبر الغز فتهيئوا للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولا للغز ثم نصر الله العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وخركاهاتهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش الى نصيبين ثم عاد عنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيثون فسادا ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم ويسمى التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية وهى بقايا من كان مع ارسلان ابن سلجوق

أما من كان من أولاد ميكائيل بن سلجوق فانهم أقلعوا بنواحى بخارى كما

قدمنا فغص بمكانهم أمير بخارى على تكين فأعمل الحيلة فى الظفر بهم فأرسل الى يوسف بن موسى بن سلجوق ومناه الاحسان وفوض اليه التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ولقبه بالأمير اينانج بيغو وأراد بذلك أن يستعين به وبعشيرته على ابنى عمه طغرلبك وداود وان يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الحيلة على يوسف فلم يكن من على تكين الا أن قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم قتله على ابنى عمه فجمعا قومهما للاخذ بثاره وجمع على تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم احتشد على تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم الى عبور النهر نحو خراسان فكتب اليهم خوارزمشاه هرون بن التونتاش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا اليه وخيموا بظواهر خورازم سنة ٤٢٦ واطمأنوا الى خوارزمشاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعا فساروا عن خوارزم الى مفازة نسا ثم كتبوا الى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عونا له على من يعاديه فلم يفعل وسير اليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم أن هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل اليهم يتهددهم ويتوعدهم فكتب اليه طغرلبك هذه الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شى قدير) فلما ورد الكتاب على مسعود كتب اليهم ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم أن يرحلوا الى آمل على شاطىء جيحون وينهاهم عن الشر والفساد وأقطع داهستان لداود (وداهستان مدينة عند

مازندران بناها عبد الله بن طاهر بين جرجان وخوارزم آخر حدود طبرستان) وأقطع نسا لطغربك وأقطع فراوة لبيغو وفراوة بلدة مما يلى خوارزم بناها عبد الله بن طاهر . استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقه فاجتمع وزراؤه وقالوا له ان هؤلاء القوم اذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعاً ثم ساروا منها الى مدينة غزنة فايقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة فى أهلها وخطب له بها أول جمعة فى رجب سنة ٤٢٨ ولقب فى الخطبة بملك الملوك . جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودى وانهزم أقبح هزيمة وسار أخزى سير الى هراة فتبعهم داود الى طوس وكانت هذه الواقعة هى التى ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغرلبك نيسابور وخطب له بها فى فى شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا النواب فى النواحى

علم ذلك مسعود فاضطر أن يسير بنفسه من غزنة فى جيوش عظيمة حتى وصل بلخ ومنها سار فى أول رمضان سنة ٤٢٩ واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود أن ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر مالا يدخل تحت الاحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبك الى نيسابور فملكها ثانية آخر سنة ٤٣١ وسكن الناس وطمأنهم بعد أن كانوا فى شدة من الفوضى ثم ملك داود بلخ وفى

سنة ٤٣٣ ملك طغرلبك جرجان وطبرستان من يد أنو شروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير . وفى سنة ٤٣٤ ملك خوارزم

لما تم له ذلك سار يريد الرى وبلاد الجبل وكان قد سبقه اليها أخوه لأمه ابراهيم ينال واستولى على الرى فلما سمع بقدومه سار اليه وسلمه اياها وجميع ما ملك من بلاد الجبل فأمر طغرلبك بعمارة الرى وكانت قد خربت ثم سار الى قزوين فملكها صلحا وملك أيضا همذان

وبذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البلاد الاسلامية وهى خوارزم وخراسان وبلاد الرى ووصلت طلائع جنوده الى البلاد العراقية . أهم ذلك الملك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد من نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل الى طغرلبك فى الصلح فأجابه اليه واصطلحا وكتب طغرلبك الى أخيه ابراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء ما بيده واستقر الحال على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبى كاليجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك وتم هذا فى ربيع الأول سنة ٤٣٩ وفى سنة ٤٤١ خطب لطغرلبك بديار بكر خطب له بها نصر الدولة بن مروان صاحبها وفى سنة ٤٤٢ استولى على اصبهان ثم أطاعته اذربيجان وأرسل اليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ رهائنهم . ثم سار الى أرمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فحصرها وأخرب ماحولها وأثر فى بلاد الروم آثارا عظيمة وبلغ فى غزوته هذه الى ارزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد الى أذربيجان ثم توجه الى الرى فأقام بها الى سنة ٤٤٧

فى هذا الوقت كانت الأحوال سيئة فى بغداد فان آل بويه قد تفرقت كلمتهم

و زالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طارئ ولا من عياريها ولصوصها فأعدوا الجهو ولقبول ما يغير من هذه الحال ٠ ومما زاد الحال فسادا ما كان من أمر أبي الحارث ارسلان المعروف بالبساسيرى وهو غلام تركي من مماليك بهاء الدولة فانه أراد أن يزيل الخلافة عن بني العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسى عنده علم ذلك فكتب الى السلطان طغرلبك مستنجدا مستغيثاً وكانت هذه أمنيته فأظهر أنه يريد الحج واصلاح طريق مكة والسير الى الشام ومصر وازالة المستنصر العلوى صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم باعداد الأقوات والعلوفات فعظم الارجاف ببغداد وفت أعضاد الناس . وصل طغرلبك الى حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس الى غربى بغداد وأرسل طغرلبك الى الخليفة يبالغ فى اظهار العبودية والطاعة والى الاتراك البغداديين يعدهم الجميل والاحسان فاتفق من ببغداد من الرؤساء والأمراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلا تقدم الخليفة الى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد فخطب له فى يوم الجمعة ٢٢ محرم ٤٤٧ ودخلها طغرلبك فى الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بنى بويه وهو الملك الرحيم و بذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وماوراءه هذه الدولة الجديدة الفتية وهى دولة السلاجقة

هذه العشيرة استولت على جل ماملكه المسلمون وقد انقسمت الى خمس بيوت

الأول السلاجقة العظمى وهى التى كانت تملك خراسان والرى والجبال

والعراق والجزيرة وفارس والأهواز

الثانى سلاجقة كرمان

الثالث سلاجقة العراق

الرابع سلاجقة سوريا

الخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين أبو طالب طغريل بك وحياتها ٩٣ سنة من سنة ٤٩٢ (١٠٣٩) م الى سنة ٥٢٢ (١١٢٧) م وهذا ثبتها

(١) ركن الدين أبو طالب طغريل بك من ٤٢٩ - ٤٥٥

(٢) عضد الدين أبو شجاع الب ارسلان ٤٥٥ - ٤٦٥

(٣) جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ - ٤٨٥

(٤) ناصر الدين محمود ٤٨٥ - ٤٨٧

(٥) ركن الدين أبو المظفر بركيا روق ٤٨٧ - ٤٩٨

(٦) ركن الدين ملكشاه الثانى ٤٩٨ - ٤٩٨

(٧) غياث الدين أبو شجاع محمد ٤٩٨ - ٥١١

(٨) معز الدين أبو الحارث سنجر ٥١١ - ٥٢٢

وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاورت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو أخو الب ارسلان ومدة ملكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ (١٠٤١) م الى ٥٨٣ (١١٨٨) م وهذا ثبت ملوكها

(١) عماد الدين قرا ارسلان قاورت بك ٤٣٣ _ ٤٥٦

(٢) كرمانشاه ٤٥٦ _ ٤٦٧

(٣) حسين ٤٦٧ _ ٤٦٧

(٤) ركن الدين سلطانشاه ٤٦٧ _ ٤٧٧

(٥) تورانشاه ٤٧٧ _ ٤٩٠

(٦) ارانشاه ٤٩٠ _ ٤٩٤

(٧) ارسلانشاه ٤٩٤ _ ٥٣٦

(٨) مغيث الدين محمد الأول ٥٣٦ _ ٥٥١

محيي الدين طغريل شاه بهرامشاه ٥٥١ _ ٥٦٣

ارسلانشاه الثانى

طرخان شاه

محمد الثانى ٥٦٣ _ ٥٦٣

وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان

وأما سلاجقة العراق وكردستان. فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ (١١١٧) أى من عهد وفاة غياث الدين أبى شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت سنة ٥٩٠ (١١٩٤) فبقيت ٧٩ سنة وانقرضت على أيدى شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها

(١) مغيث الدين محمود ٥١١ _ ٥٢٥

(٢) غياث الدين داود ٥٢٥ _ ٥٢٦

(٣) طغريل الأول ٥٢٦ _ ٧٢٥

(٤) غياث الدين مسعود ٥٢٧ ـ ٥٤٧

(٥) معين الدين ملكشاه ٥٤٧ ـ ٥٤٨

(٦) محمد ٥٤٨ ـ ٥٥٤

(٧) سليمانشاه ٥٥٤ ـ ٥٥٦

(٨) أرسلا نشاه ٥٥٦ ـ ٥٧٣

(٩) طغريل الثانى ٥٧٣ ـ ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) أى فى أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٥١١ (١١١٧) فكانت حياتها ٢٤ سنة وانتهت على أيدى الدولتين النورية والأرتقية وهذا تبت ملوكها

(١) تتش بن الب ارسلان ٤٨٧ ـ ٤٨٨

(٢) رضوان بن تتش ٤٨٨ ـ ٤٨٨

(٣) تقاق بن تتش فى دمشق ٤٨٨ ـ ٥٠٧

(٤) الب ارسلان أخرص بن رضوان ٥٠٧ ـ ٥٠٨

(٥) سلطانشاه بن رضوان ٥٠٨ ـ ٥١١

وأما السلاجقة الروم ملوك قونيـة واقصرا فكانوا من بيت قطلمش بن اسرائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) فى عهد جلال الدين أبى الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) فمدة حياتها ٢٣٠ سنة فهى أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت

دولتهم على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها

(١)	سليمان بن قطلمش	٤٧٠ ـ ٤٧٥
(٢)	قليج ارسلان داود بن سليمان	٤٧٥ ـ ٥٠٠
(٣)	ملكشاه بن قليج ارسلان	٥٠٠ ـ ٥١٠
(٤)	مسعود بن قليج ارسلان	٥١٠ ـ ٥٥١
(٥)	عز الدين قليج ارسلان بن ملكشاه	٥٥١ ـ ٥٨٤
(٦)	قطب الدين ملكشاه بن قليج ارسلان	٥٨٤ ـ ٥٨٨
(٧)	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٥٨٨ ـ ٥٩٧
(٨)	ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان	٥٩٧ ـ ٦٠٠
(٩)	قليج ارسلان بن سليمان	٦٠٠ ـ ٦٠١
	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان ثانيا	٦٠١ ـ ٦٠٧
(١٠)	عز الدين كيقاوس بن ملكشاه	٦٠٧ ـ ٦١٦
(١١)	علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه	٦١٦ ـ ٦٣٤
(١٢)	غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ	٦٣٤ ـ ٦٤٣
(١٣)	عز الدين كيقاوس بن كيخسرو	٦٤٣ ـ ٦٥٥
(١٤)	ركن الدين قليج ارسلان بن كيخسرو	٦٥٥ ـ ٦٦٦
(١٥)	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٦٦٦ ـ ٦٨٢
(١٦)	غياث الدين مسعود بن كيقاوس	٦٨٢ ـ ٦٩١
(١٧)	علاء الدين كيقباذ	٦٩١ ـ ٧٠٠

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول

بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ أى ١٤٣ سنة

استخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم

٢٦ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر

٢٧ عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم

٢٨ أحمد المستظهر بن المقتدى

٢٩ الفضل المسترشد بن المستظهر

٣٠ المنصور الراشد بن المسترشد

٣١ محمد المقتفى بن المستظهر

٣٢ يوسف المستنجد بن المقتفى

٣٣ الحسن المستضىء بن المستنجد

٣٤ أحمد الناصر بن المستضيء

وأولهم القائم بأمر الله هو الذى فى عهده انتهى العصر البويهى وابتدأ ملك السلجوقى وآخرهم الناصر لدين الله هو الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة

ملك السلطان طغرلبك بغداد وتقرب من الخليفة تقربا عظيما حتى ان الخليفة تزوج ارسلان جاتون واسمها خديجة بنت داود أخى طغرلبك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها الى دار الخلافة . ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحد بل ان السلطان طغرلبك تطلع الى أن يتزوج هو أيضا من البيت العباسى وهو أمر لم تجر به العادة فأرسل سنة ٤٥٣

يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل الى السلطان رسولا أمره أن يستعفى من الأجابة فان أعفى والا تمم الأمر على أن يحمل السلطان ٣٠٠٠٠٠ دينار ويسلم واسط وأعمالها فلما وصل الرسول قال له عميد الملك الكندرى وزير طغرلبك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضا بطلب الأموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ما طلب منه ففوض الرسول الأمر الى الوزير فبنى الوزير الأمر على الاجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت به الى الاتصال بتلك الجهة النبوية و بلغ من ذلك مالم يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن يسير الى بغداد لاتمام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعا ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الأمر الى عميد الملك فحضر الى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضى الى فساد ولما رأى الخليفة شدة الأمر أذن فى العقد و وكل فيه عميد الملك فجرى العقد فى شعبان سنة ٤٥٤ بظاهر تبريز وحمل السلطان أمولا كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولى العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل بعقوبا وما كان بالعراق للخاتون زوجة السلطان التى توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان الى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت الى دار المملكة فى منتصف صفر سنة ٤٥٥ وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان اليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن

وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئا كثيرا من الجواهر وغيرها وبقى كذلك يحضر كل يوم يخدم و ينصرف وخلع على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور

الحادث العظيم ببغداد

فى السنة التى تلى حكم السلاجقة ببغداد وهى سنة ٤٤٨ كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيرى ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدى وبين قريش ابن بدران العقيلى ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك انهزم فيها قريش وقتلمش فوصل خبر هذه الواقعة الى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهرا لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل و الجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها الى أخيه لأمه ابراهيم ينال ثم عاد الى بغداد فى أوائل سنة ٤٤٩ وقابل الخليفة لأول مرة وفوض اليه الخليفة أمر ادارة البلاد وقد بالغ طغرلبك فى احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم اشارة الى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد سيفا محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركا فعل ما فعل من ذلك التعظيم والاجلال تدينا

فى سنة ٤٥٠ ترك ابراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل و يقال ان المصريين كاتبوه وأطمعوه فى الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراءه الى همذان . فى ذلك الوقت عاد البساسيري بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى وصل الى بغداد فى ثامن ذى القعدة سنة ٤٥٠

واستولى عليها لانه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوى صاحب مصر وأذن بحي على خير العمل وكانت العامة قد مالت اليه أما الشيعة فلاتحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك

أما الخليفة القائم فانه خرج من قصره فى ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلى استذم منه بذمام الله وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية فأعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة ثم حمله الى معسكره وعليه السواد والبردة و بيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله فى خيمة ثم سلمه الى ابن عمه مهارش بن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله فى هودج وسار به الى حديثة عانة فتركه بها آمناً مطمئنا فى ذمام العربية الذى يرى الخيانة عارا

أما البساسيرى فانه سار ببغداد سيرة مالك ورفعت على رأسه الالوية البيضاء التى أرسلت اليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على

أما السلطان فانه استنجد بأولاد أخيه ارسلان وياقوتى وقاورت بك فجاءوه بالعساكر يتلو بعضها بعضا فالتقى بهم أخاه ابراهيم ينال بالقرب من الرى فتغلب عليه وأسره ثم أمر به فخنق بوتر قوسه فى تاسع جمادى الآخرة سنة ٤٥١ ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم الا اعادة القائم بأمر الله الى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيرى أنه لاقبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله اليها سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها سادس ذى القعدة سنة ٤٥١ وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق امام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد

المعروف بابن فورك الى قريش بن بدران يشكره على ما فعله بالخليفة ويخبره أنه أرسل ابن فورك للقيام بخدمة الخليفة واحضاره فأرسل قريش الى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغز عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك الى البرية فانهم اذا علموا أن الخليفة عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فأبى ذلك مهارش وقال ان الخليفة قد استحلفنى بعهود ومواثيق لا مخلص منها وسار بالخليفة الى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معا حتى وصلوا الى النهروان فى ٢٤ ذى القعدة فخرج السلطان الى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر من تأخره بعصيان أخيه ابراهيم وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفا وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعا الى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذى القعدة سنة ٤٥١

ثم أنفذ السلطان جيشا لملاحقة البساسيرى الذى توجه سمت الشام وسار السلطان فى أثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه الى بغداد وكان البساسيرى هذا مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمى تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحرث وهو منسوب الى بسا مدينة بفارس كان سيده الأول منها

وبعد أن تم ما أراده عاد الى الرى التى جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة . وفى سنة ٤٥٥ عاد الى بغداد ليبنى بابنة الخليفة التى

ذكرنا فيما مضى حديثها ثم عاد الى الرى وبها كانت وفاته فى يوم الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥

ولما توفى أراد عميد الملك أن يقيم فى الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتهيأ له ما أراد وتم الأمر للسلطان

(٢) عضد الدولة أبى شجاع الب ارسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد عارضه فى الملك ابن عم أبيه قتلمش بن اسرائيل فقتل دون مراده . استعان الب ارسلان فى ادارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتى التعريف به وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه

كان الب ارسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة الى بره بالرعية وارادته خيرهم وكان اذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيان ويقول آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا . وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده سنة ٤٦٢ ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبى حاميتها فأساء ذلك الب ارسلان ولاسيما أنه بلغه أن الروم عازمون على اعادة الكرة فأغذ السير الى أذربيجان لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لا يحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل اليها بعشرين ألف فارس فوقف فى أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك فى رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ونزل على ملازكرد فسلمت حاميتها . حصل ذلك والعسكر السلطانى مجد فى سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان فى اليوم الذى سلمت فيه حامية ملازكرد وكان نزول عسكره فى يوم

الخميس ٦ ذى القعدة والروم بين خلاط وملازكرد فأرسل السلطان الى ملك الروم يقول له ان كنت ترغب فى الهدنة أتممنا ما تريد والا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا فظن ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالرى فكان ذلك مما ألهب النفوس الاسلامية وزادها حمية وقال امام السلطان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى للسلطان انك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر . فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها فى نقطة لاتبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم أشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم اليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منها منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطى قنطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت ١٢ خوذة بسدس دينار وثلاثة أدراع بدينار

وعاد السلطان مؤيدا ظافرا بعد هذه الواقعة التى لم تقم للروم بعدها قائمة فى نواحى أرمينية

وكان عهد الب ارسلان كله عهد نمو وارتقاء فى دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضا فان نظام الملك أسس فى عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم

بناؤها سنة ٤٥٨ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو اسحاق الشيرازى ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفى المملكة ببغداد بنى على ضريح أبى حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهدا ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة

ألم تر هذا العلم كان مشتتا فجمعه هـذا المغيب فى اللحد

كذلك كانت هذه الارض ميتة فأنشرها فضل العميد أبى سعد

وفى سنة ٤٦٥ توجه الب ارسلان قاصدا بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته حكى عنه أنه قال وهو يقرب من الموت ما كنت قط فى وجه قصدته ولا عدو أردته الا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما فى هذه النوبة فانى أشرفت من تل عال فرأيت عسكرى فقلت أين من له قدر بمصارعتى ومعارضتى وانى أصل بهذا العسكر الى بلاد الصين فكان ما أراد الله وكانت وفاته ٦ ربيع الأول سنة ٤٦٥

ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه

ولأوائل حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ فقام بالأمر بعده ولى عهده حفيده

٢٧ ـ المقتدى بأمر الله

أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فان الذخيرة توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القادرى الى غيره ولم يشكوا فى اختلال الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادرى كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقة فلو اضطر الناس الى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولا هيبة فقدر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها ارجوان وكان يلم بها فلما توفى ظهر أنها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبد الله الذى ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة الى أن توفى فجأة فى يوم السبت خامس محرم سنة ٤٨٧ (   ) فكانت خلافته ١٩ سنة وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بنى العباس كان قوى النفس عظيم الهمة أصلح كثيرا من الأحوال الأدبية ببغداد فأمر بنفى المغنيات والمفسدات منها وقلع الهرادى والأبراج التى للطيور ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيرا من الماديات فعمرت فى بغداد عدة محال فى خلافته ومنع من اجراء ماء الحمامات الى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر الى النجمى فيغسله هناك وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة فى عهده ملكشاه الذى ذكرنا قيامه بعد أبيه الب ارسلان

وكان ملكشاه سلطانا عادلا ذا فضل وانصاف شجاعا مقداما صائب الرأى والتدبير أيامه فى دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه الى اقليم الا فتحه ولما توجه الى الشام وأنطاكية بلغ الى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل الى خزانته ووضع فى النواحى التى فتحها من الروم خمسين منبرا اسلاميا ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد الى الرى وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار فى ركابه الى موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاده الى ملكه وتوجه فى السنة الثانية الى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب وهذه السعادة كلها انما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبى على الحسن بن على بن اسحاق رضى أمير المؤمنين الطوسى وكان معدودا من العلماء الاجواد وكان محبا للعلم مجلسه دائما معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية فى سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول انى لست من أهل هذا الشأن ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ وكان اذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فاذا فرغ لا يبدأ بشئ قبل الصلاة وأسقط فى زمنه كثيرا من المكوس والضرائب وهو الذى أزال لعن الأشعرية من المنابر وكان سلفه عميد الملك الكندرى قد حسن للسلطان طغرلبك التقدم بلعن الرافضة. فأمره بذلك فأضاف اليهم الأشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الائمة بلادهم مثل امام الحرمين وأبى القاسم القشيرى وغيرهما فلما ولى نظام الملك أزال ذلك جميعه

وأعاد العلماء الى أوطانهم

ومن ظريف الاخبار أن نظام الملك كان اذا دخل عليه امام الحرمين وأبو القاسم القشيري يقوم لهما ويجلس فى مسنده كما هو واذا دخل عليه أبو على الفارمذى يقوم اليه ويجلسه فى مكانه ويجلس هو بين يديه فقيل له فى ذلك فقال ان هذين وأمثالهما اذا دخلوا على يقولون لي أنت كذا وكذا يثنون بما ليس فى فيزيدنى كلامهم عجبا وتيها وهذا الشيخ يذكرلى عيوب نفسى وماأنا فيه من الظلم فتنكسر نفسى لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه . وكان ينظر فى الاوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد فى أمرها وعلى الجملة فكان غرة فى جبين آل سلجوق ومن حسناته حجة الاسلام الامام الغزالى فهو قرينه فى الطلب ازدانت بهما طوس واختالت على ما سواها من بلاد فارس وكان مؤيدا بقرينين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الانشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأى والتدبير والدهاء والجود . ومع ماظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحا بل ما زالوا فى سعاياتهم حتى نغل ذلك الاديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ اليه أحد خاصته برسالة واختار عينا يحصى على الوزير مايفوه به وكان مضمون الرسالة انك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك فكان جوابه عن تلك الرسالة — قولوا للسلطان ان دواتى مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع ومتى سلبتها سلب — فاشتد من ذلك

الجواب غيظ السلطان وكان بعد ذلك أن أحد الملاحدة اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك سنة ٤٨٥

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعش بعده الا ٣٣ يوما وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقى ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعا عظيما فخطب له من حدود الصين الى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال الى آخر بلاد اليمن وحملت اليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد . أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد وعمر الطرق والقناطر والمرابط التى فى المفاوز وحفر الأنهار الخراب وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطريق مكة و بنى البلد بأصبهان

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود . وكان محمود طفلا وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدى أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب الى ذلك على شروط اشترطها الا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الاكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان فتم ما أرادوا وأرسل تقليده الى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته فى ١٥ محرم سنة ٤٨٧

وفاة المقتدى

فى منتصف المحرم سنة ٤٨٧ توفى المقتدى بالله فجأة بعد أن قدم اليه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم ما فيه ولم يمضه

٢٨ - المستظهر بالله

بويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله واستمر خليفة الى أن توفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و١١ يوما وكانت سنه حين توفى ٤١ سنة وستة أشهر وستة أيام

حال الممالك الاسلامية فى عهده

كان بالاندلس والمغرب الاقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين (٤٨٠ - ٥٠٠) ثم من بعده ابنه على الى سنة ٥٣٧

وبافريقية من آل زيرى تميم بن المعز بن باديس الى سنة ٥٠١ ثم يحيى بن تميم الى سنة ٥٠٩ ثم على بن يحيى الى سنة ٥١٥

وبمصر من الفاطميين المستعلى أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد الى سنة ٤٩٥ ثم الآمر بأحكام الله على المنصور بن المستعلى الى سنة ٥٢٤

وبزبيد من الدولة النجاحية الأمير جيش بن نجاح الى سنة ٤٩٨ ثم فاتك ابن جيش الى سنة ٥٠٣ ثم منصور بن فاتك الى سنة ٥١٧

وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمدانى من سنة ٤٩٢ الى سنة ٥٠٢ ثم عبد الله بن حاتم الى سنة ٥٠٤ ثم معن بن حاتم الى سنة ٥١٠ ثم هشام ابن قبيط وحاتم بن حماص

وما عدا ذلك من البلدان الاسلامية فى آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة

كان المستظهر بالله من خيار بنى العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب

الاصطناع ويفعل الخير ويسارع الى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعى لايرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ الى سعاية ساع ولا ملتفت الى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره واذا تعرض سلطان أو نائب له الى أذى أحد بالغ فى انكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لايقار به فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله

أذاب حر الهوى فى القلب ماجمدا ... لما مددت الى رسم الوداع يدا
وكيف تسلك نهج الاصطبار وقد ... أرى طرائق فى مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به ... من بعدما قد وفى دهرى بما وعدا
ان كنت أنقض عهد الحب فى خلدى ... من بعد هذا فلا عاينته أبدا

تولى ملك العراق فى خلافة المستظهر بالله ملكان من آل سلجوق أولهما السلطان أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين بن نظام الملك ولم يكن فيه شئ من كفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحيم اليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الاستاذ على بن أبى على القمى وكانوا جميعا سواسية فى النكوب عن جادة الاعتدال وسياسية المملكة والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك فى شرابه وقد ذهب الجميع الى بغداد واختاروا المقام فيها لاهين بمغانيها وغوانيها . كان ذلك مجرئا عم السلطان تتش بن الب ارسلان صاحب دمشق أن يقوم طالبا السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان ثم بداله فعاد الى دمشق لما رأى كثيرا من أمرائه ميالين الى مساعدة بركياروق وانتظم

الأمر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل الا بمقدار ما أعد تتش للأمر عدته فعاد سنة ٤٨٧ بجنوده التى أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ثم أرسل الى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل اليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق فى وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمر على ذلك حتى لم بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمه فى موضع قريب من الرى فكانت الهزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك سنة ٤٨٨ واستقام الأمر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه بآراء الوزير مؤيد الملك أبى بكر عبد الله بن نظام الملك الذى استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن فى أولاد نظام الملك أكفى منه وكان وحيدا فى بلاغة النظم والنثر ولما هنأ السلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتك ويمن نقيبتك الا أن مدة ذلك الوزير الايمن لم تطل فان أم السلطان كانت متداخلة تداخلا كثيرا فى سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أرسل وبذل أموالا جزيلة فى الوزارة فأجيب اليها وعزل أخوه واعتقل فاحتال حتى خلص من اعتقاله وتوجه الى محمد بن ملكشاه الذى كان ملكا على اران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره فى مهماته ثم سلم اليه وزراته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من اران فى شرذمة يسير حتى وصل دار الملك أصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال اليه العساكر فمالوا اليه

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه فى وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقى كله بل على الاسلام جميعاً فقد

ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة ٤٩٢ الى سنة ٤٩٧ خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال . الأفرنج تحركوا من مرابضهم للاغارة على البلاد الاسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الاسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون و يتخاصمون

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعا فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك و يختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وادلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها و بالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها و ببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعًا وأما خراسان فان السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له فى جميعها وهى من حدود جرجان الى ماوراء النهر ولاخيه السلطان محمد — فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوما والطمع من العسكر زائدا أرسل القاضى أبا المظفر الجرجانى الحنفى وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمذانى الى أخيه محمد فى تقرير قواعد الصلح فسارا اليه ورغباه فى الصلح وفضيلته وذكرا له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الاسلام فى أطراف الأرض فأجاب الى ذلك واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمدا فى الطبل وألا يذكر معه

على سائر البلاد التى صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر فى قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذه روذ الى باب الابواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهى الحلة وما اليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الاحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فانه توفى فى ثانى ربيع الآخر سنة ٤٩٨

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه الا أن أمره لم يتم فان عمه محمدا ماعتم أن قدم الى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن الله حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد الى دست ملكه بأصفهان

لم يكن السلطان محمد موفقا لاختيار كبار مملكته وقد كانت الاعمال الكبرى فى دولة آل سلجوق هى

(١) الوزارة (٢) استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفى (٣) الطغراء وهو رياسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والانشاء (٤) الاشراف وعرض الجيش . قال بعض الكتاب فى حق السلطان محمد وقد كثر تعجبى من السلطان يتأنق فى تخير كلاب الصيد وفهوده وانما يقتنى منها مايراه موافقاً لمقصوده فيسئل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل والصدور الاماثل من عرفه ذاك وعرفه زاك وعرقه كريم

ومجده قديم وطريقه فى الكفاية مستقيم لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار وأجدر بالاختبار فانهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه فى خدمته . ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير واستمر ملك محمد هذا الى سنة ٥١١ حيث توفى فى ٢٤ ذى الحجة وعمره اذ ذاك ٣٧ سنة وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وقد أطلق فى حياته المكوس والضرائب فى جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد فى ١٣ محرم سنة ٥١٢

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلا بعد وفاة محمد بن ملكشاه فانه توفى فى ١٦ ربيع الآخر فلم يكن بين رحيلهما من هذا العالم الا أقل من أربعة أشهر

كان فى حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة فى المملكة الاسلامية فى الشرق والغرب فأما فى الشرق فظهور الباطنية وعيثهم فى البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما فى الغرب فأغارة الفرنج على البلاد الاسلامية وبدء الحروب الصليبية ولابد أن نشير الى كل من الحادثين بكلمة لنبين كيف كان ابتداؤهما فان استيفاء ما يتعلق بهما يرجع الى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لأن الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم والافرنج أعداؤهم

الباطنية

لما نجح الفاطميون باقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم

حتى وصلت الى نواحى الفرات دار فى خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين الى المشرق حتى يعم بقاع الارض ملكهم وكانت الطريقة التى جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة الى الاقطار فيدعون الناس اليهم سرا ويزينون لهم ما يدعون اليه بضروب من الزينة التى مهروا فى ابداعها وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعى الدعاة ودرجته تلى قاضى القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها الى كل قطر متبعين نظاما مسنونا ومن البلاد التى اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعاتهم اليها البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة فى عهد ملكشاه وسبب هذا الرواج أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار وكان الرسم فى أيام الديلم ومن قبلهم من الملوك أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الأخبار فلما تولى السلطان ألب ارسلان فاوضه وزيره نظام الملك فى هذا الامر فأجابه لا حاجة بنا الى صاحب خبر فان الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فاذا نقل الينا صاحب الخبر خبرا وكان له غرض أخرج الصديق فى صورة العدو والعدو فى صورة الصديق ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحا وأول ما عرف من أمرهم أنه اجتمع منهم ١٨ رجلا بمدينة ساوة وهى مدينة بين الرى وهمذان فصلوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم ثم انهم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان مقيما بأصبهان فلم يجبهم الى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهو أول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره الى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو

أول قتيل منهم . ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحداً منهم فقتله وهى أول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجارا فقتلناه به . وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهى بين نيسابور وأصبهان وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان الى قاين فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركمانى فوصل الى قاين وأخبر بالخبر فتسارع أهلها الى جهادهم فلم يقدروا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت اطماعهم ولاسيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهى قلعة بناها السلطان ملكشاه

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد هو أحمد بن عبدالملك بن عطاش فقدموه عليهم وألبسوه تاجا وجمعوا له الأموال ثم ظهر منهم الرئيس الثانى وهو الحسن بن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبدالملك بن عطاش ثم رحل الى مصر فلقى بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه فكان أول مافعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهى من نواحى قزوين فى موضع حصين ولم يكن نظام الملك اذذاك قد توفى فلما بلغه الخبر بعث الى تلك القلعة عسكرا فحصروا فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعه بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها

ودخل فى حوزتهم أيضا بعض قهستان وطبس ومكلوا كذلك قلعة وسنمكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التى جعلوها حصونا لهم ومعاقل .

تمكنت أقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤساؤهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الأمانى الجميلة التى يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجاب . وقد صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبه الناس الى الارتكاس فى عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت الى جميع أصناف الناس التهم ودب الى البرآء السقم وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين الى الالحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك الملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك فقد اتهمته رعيته بالميل الى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التى هى مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية ارسلانشاه بن كرمانشاه بن قاورت بك . ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس فى كل جيل يميل بعضهم الى الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان فى ابادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالالحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس فى هذا المصاب رأى ولا تدبير

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين اعدائهم ذحول واحن فلما قتلوا جماعة من الامراء الأكابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو فى طاعة السلطان محمد أخى بركياروق مثل شحنة أصبهان وغيره

نسب أعداء بركياروق ذلك اليه واتهموه بالميل اليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمدا انبسط جماعة منهم فى العسكر واستغووا كثيرا منهم وأدخلوهم فى مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد من مخالفيهم لا أمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسرا بل يلبس تحت ثيابه درعا واستأذن السلطان بركياروق خواصه فى الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم وأعلموه مايتهمه الناس به من الميل الى مذهبهم حتى ان عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا فى المصاف يكبرون ويقولون ياباطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان فى قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم الامن لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون الى الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة براء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم ومن الغريب أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسى مدرس النظامية ورفيق الغزالى فى الطلب والتلمذة لامام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة فى العلم فاطلق

وفى سنة ٤٩٤ جمع الامير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعا كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار الى بلد الاسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجنيق فخرب كثيرا من سورها وضعف من بها ولم يبق الا أخذها فأرسلوا اليه الرشا الكثيرة واستنزلوه

عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملؤها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد اليهم سنة ٤٩٧ بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي وفعل بهم الأفعال العظيمة ثم ان أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أنهم لايبنون حصنا ولا يشترون سلاحا ولا يدعون أحدا الى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الامان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفي بزغش بعد عوده من هذه الغزاة

وكان تركهم بعد هذا التضيق عليهم داعيا الى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد فوصلوا الى جوار الري فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً

وفي سنة ٥٠٠ رأى السلطان محمد ما وصل اليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فان أمره استفحل بالقلعة التى ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الاموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقا كثيرا لا يمكن احصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ونسى أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركيارق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمرأهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان

التى بأيديهم لان الاذى بها أكثر وهى متسلطة على سرير ملكه فخرج اليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلا يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الامم العظيمة الذحول التى يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الامراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاق الامر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات ولما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين فى قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وانما يخالفون الامام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن على بن عبد الرحمن السمجانى وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز اقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فانهم يقال لهم أخبرونا عن امامكم اذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فانهم يقولون نعم وحينئذ تباح دماؤهم بالاجماع وطالت المناظرة فى ذلك ثم ان الباطنية سألوا السلطان أن يرسل اليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصا من العلماء منهم القاضى أبو العلا صاعد بن يحيي شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا اليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وانما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلج حينئذ السلطان فى حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا الى تسليم القلعة على أن يعطوا عنها قلعة خالنجان وهى على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا انا نخاف

على دمائنا وأموالنا من العامة فلابد من مكان نحتمى فيه فأشير على السلطان باجابتهم الى ماطلبوا فسألوا أن يؤخرهم الى النوروز ليرحلوا الى خالنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح وان قال أحد عنهم شيئا سلمه اليهم وأن من أتاه منهم رده اليهم فأجابهم اليه وطلبوا أن يحمل اليهم من الاقاتة ما يكفيهم يوما بيوم فأجيبوا . وكان قصدهم المطاولة انتظارا لفتق ينفتق أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان مايحمل اليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون اليه فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الأطعمة مايجمعونه ليمتنعوا فى قلعتهم ثم انهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميرا كان يبالغ فى قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان باخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم الى أن يصلوا الى قلعة الناظر بارجان وهى لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم الى طبس وأن يقيم باقيهم فى ضرس من القلعة الى أن يصل اليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم الى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا الى ذلك فنزل منهم جماعة الى الناظر والى طبس وتسلم السلطان القلعة فأخربها ثم ان الذين ساروا الى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذى بقى بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم جدا وشجاعة زائدة وكان قد استأمن الى السلطان انسان من أعيانهم فدله على عورة لهم فأتى بهم الى جانب لذلك السن لايرام فقال اصعدوا من هنا فقيل انهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال ان الذى ترون

أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقى ثمانين رجلا فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من دخل فخرجوا معهم وأما ابن عطاش فأخذ أسيرا فترك أسبوعا ثم قتل هو و ولده ومثل بهما وحملت رءوسهما الى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتى عشرة سنة

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقلعته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم واخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستا وعشرين سنة وكان المجاورون له فى أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبي نسائهم فسير اليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضا ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب آبه وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها الى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه سار الى الموت فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة فى قتالهم مع جودة رأى وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهرا يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل اليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين و يسألون أن

يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا الى ذلك وأعادهم الى القلعة قاصدا أن يموت الجميع جوعا وكان ابن الصباح يجرى على كل رجل منهم فى اليوم رغيفا وثلاث جوزات فلما بلغ بهم الأمر الى الحد الذى لامزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر الى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركيران رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا الينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها وان لم يمكن المقام فلا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق مانعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات الى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم

خطر المغرب

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سببا لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سببا لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحا وافياً فانها حوادث أجيال اذ قد استمر أمرها من سنة ٤٩٠ الى سنة ٦٩٠ أي قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الاسلامية الدولة الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الاتابكية التى تفرعت عن السلاجقة ودولة الايوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن فى اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم

امتد سلطان السلاجقة على بلاد الروم (أرمينية والاناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية وأقصرا وما اليهما وأخذوا بخنق الروم ففقدوا كل حيلة فى استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجين وخافوا على ما بقى لهم من الأملاك فى آسيا . وكان ملك السلاجقة الروميين فى أيام تلك الحوادث السلطان قليج ارسلان داود بن سليمان بن قتلمش (٤٨٥ - ٥٠٠)

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها فى هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب ارسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة فى الملك

وكان خليفة مصر الفاطمى هو المستعلى بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧ - ٤٩٥)

كان البيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركمانى فاستمر فى حوزته الى سنة ٤٨٩ وهى السنة التى سار فيها الصليبيون قاصدين فى الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدى هؤلاء المغتصبين

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب فى السبب الذى حدا بأولئك المغيرين الى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم ان هذه الحملة كانت فى الأصل موجهة الى شمال افريقية وكانت اذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ - ٥٠١) وكان رجار الصقلى قد قام فى عهده واستولى على صقلية وحارب تميما فى عقر داره حروبا كانت بينهما سجالا ولما بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه لأنه قال اذا وصلوا

الى أحتاج الى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم الى افريقية وعساكر من عندي أيضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وان لم يفلحوا رجعوا الى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بى ونقضت عهدى وتنقطع الوصلة والاسفار بيننا و بلاد افريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها . ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس لأن الجهاد فى تخليصه أعظم أثرا وأبقى فخرا

وقال فريق آخر ان أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلا الى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين

وقال فريق من غيرهم ان ملك الروم هو الذى دعا الافرنج الى ذلك لما خاف على دولته من السلاجقة فانهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل

والذي عليه جمهور المؤرخين أن الغيرة الدينية التى أثارها فى أوربا بطرس الراهب بمساعدة البابا أوربانس الثانى هى التى هاجت أنفس الافرنج لهذه الاغارة

وكل هذه الأسباب لا يبعده العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضا والافرنج يميلون الى جعلها حربا دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية فى ذلك العصر

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا

البيت الذى فيه آثار المسيح عليه السلام فعاد الى أوربا شاكياً باكياً مستغيثاً متضرعا واستعان بسلطان البابا أوربانس الثانى الذى كان اذ ذاك صاحب الكلمة العليا فى أوربا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية فى قلوب المسيحيين فنجح فى ذلك ولاسيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع فى هذه الحرب فتألفت جيوش عظيمة سارت الى طلبتها فى ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره الا أن هذه الحملة لم تنجح فى مسيرها لانها لم تكن ذات نظام عسكرى فعاثت فى الأرض فسادا فقاومها البلغاريون والهونغريون وأفنوا كثيرا منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية الى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج ارسلان عند قونية فلم ينج منهم أحد وهذه هى الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى

قام على أثرها حملة أخرى وهى الحملة الثانية يقدمها غودافرودى بوليون دوق دى لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكزأخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الايطالى

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التى كانت من أعمال قليج ارسلان وعددهم عظيم جدا فلقيهم ذلك السلطان مدافعا عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحو خمسين يوما وفى نهايته سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذى أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب

هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جدا فى مسيرة ففنى كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد فى العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار الى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم اذ ذاك

سار القوم الى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغسيان فحصروها تسعة اشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه مالم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين الابراج الذى بذل له الافرنج مالا وأقطاعا وكان الافرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق اننا لا نقصد غير البلاد التى كانت للروم لانطلب سواها وانما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ماأرادوا . سار الافرنج بعد ذلك الى معرة النعمان فامتلكوها

كان البيت المقدس فى تلك الايام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون فانهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالى فاستولى عليه من يد الأمير سقمان بن أرتق التركمانى واستناب فيه رجلا يعرف بافتخار الدولة وهو الذى تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا اليه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها . حصروا البيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيرا استولوا عليه فى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع بل أساءوا معاملة أهليه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وورد المستنفرون من الشام فى رمضان الى بغداد صحبة القاضى أبي سعيد الهروى فأوردوا في الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع

القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد اذ ذاك يتطاحنا يريد كل منهما الانفراد بالملك واقصاء أخيه عنه

ولما تم للافرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافرو ليكون ملكا هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بحامى قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم الى أوطانهم

وضع غودافرو قانونا لادارة مملكته الجديدة الا أن زمنه لم يطل فانه توفى فى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله فى ملك الرها ابن عمه بودوين دى بورغ ملكا على الرها وسار هو الى حاضرة ملكه وهو المعروف فى التواريخ العربية باسم بردويل ٠ هكذا وجدت مملكة افرنجية فى وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هى تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين المصريون يناوشونهم من الجنوب والأتراك من الشرق ٠ ولم تكن المملكة الافرنجية واحدة فى البلاد التى استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وانطاكية والرها وغير ذلك الا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس ٠ وسنتكلم فى حوادثها عند ظهور الدولة الاتابكية والدولة الأيوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الافرنج

٢٩ ـ المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر ولاه أبوه بالعهد فبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه والده ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة الى أن قتل فى يوم الأحد ١٧ ذى القعدة سنة ٥٢٩ (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥)

كان سلطان العراق لأول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه فى ذلك الوقت ملك خراسان وما اليها من بلاد ما وراء النهر الى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولته وهو شيخ البيت السلجوقي وعظيمه . فلما توفى أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع شديد وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الى الخطباء بذكر السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية واطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفى أخوه تلقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود . ثم ان السلطان محمودا أرسل الى عمه سنجر وفدا معه الهدايا والتحف وطلب اليه أن ينزل له عن مازندران فغاظه هذا الطلب وقال ان ولد أخى صبى وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الرى بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودى قد استهان بالعسكر السنجرى لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لاتلوى على شىء أما سنجر فكان واقفا فى القلب

وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم فقال اما النصر واما القتل وأما الهزيمة فلا وهجم بفيلته على قلب محمود هجوما شديدا فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده ووصل الخبر الى بغداد فى عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل. أما محمود فانه سار الى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فسار الى همذان وهناك راسل ابن أخيه فى الصلح وكانت والدة سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت مالا حد عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم فأجاب الى قولها وبعد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود الى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ فى اكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهرا وردها باطنا ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر الى جميع أعماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولى عهده ورد عليه جميع ما أخذه منه سوى الرى

ولم يكد السلطان محمود ينتهى من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان وذلك سنة ٥١٤ وقد أجج الأمراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالمملكة الافرنجية التى صارت شوكة فى جنوبهم وكان وزير مسعود هو الأستاذ أبو اسمعيل الحسين بن على الاصفهانى وهو الذي حسن لمسعود أن يقوم مطالبا بالمملكة ولما بلغ ذلك محمودا كتب اليهم يخوفهم ان خالفوه ويعدهم الاحسان ان أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا الى قوله وأظهروا ما كانوا عليه

وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس ثم سار كل منهم الى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتتلوا من بكرة الى آخر النهار وأبليت الجنود المحمودية بلاء حسنا فانهزم عسكر محمود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمي جنودهم ومنهم الوزير أبو اسمعيل الطغرائى فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتي به بعد أن بذل له الامان فاستقبله استقبالا عظيما وفى له بما بذله وخلطه بنفسه فى كل أفعاله فعد ذلك من مكارم محمود ولاعجب فقد علمه ذلك عمه سنجر

كان الخليفة المسترشد بالله فى هذا العصر قد استرد شيئا من نشاط الخلفاء العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم دبيس بن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولاشك أن الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فانهم يتخوفون عاقبته ويرون منه خطرا على نفوذهم ومما يدل على أن ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى حصل بينه وبين نواب الخليفة نفرة فهدده الخليفة فخاف فسار عن بغداد الى السلطان محمود وشكا اليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قاد العساكر ولقى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوة وجمعا ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ماهو الآن بيده فأثر ذلك الكلام فى نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل اليه الخليفة يعرفه ما البلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الاكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح

الأحوال وبذل له على ذلك مالا كثيرا فكان هذا مما زاد فى اغراء السلطان حتى قصد بغداد فسار اليها مجدا ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك ان جاء السلطان فأثر ذلك فى أنفس العامة تأثيرا عظيما حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما علم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب اليه العودة الى داره فأبى الا أن يعود السلطان ولا يحضر الى بغداد فلم يلتفت السلطان الى قوله واستمر قاصدا بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابلته بالقوة وكان معه كثير من العامة والجند يدافعون عنه تدينا وقد حصلت مناوشات بين الفريقين فى أول سنة ٥٢١ وكان مع كل جمع عظيم ولما رأى المسترشد بالله ذلك جنح الى الصلح الذي طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال لاتساوى الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد الى رابع شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ ثم فارقها بعد أن حمل اليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة

وفى سنة ٥٢٤ ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن ابن الصباح

وفى سنة ٥٢٥ توفى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليما كريما عاقلا يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع فى أموال الرعايا عفيفا عنها كافا لأصحابه عن التطرق الى شئ منها

لما توفى خطب لولده داود بالسلطنة فى بلاد الجبل وأذربيجان الا أنه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد الا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان

سنجر فأقبل من خراسان قاصدا دفع مسعود عن السلطنة وسار اليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وفل جيشه وتحكم سنجر فيما بقى ثم أرسل وراء ابن أخيه من يرده فردوه اليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده الى السلطنة بل رده الى كنجه وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد مكانه وخطب له فى جميع البلاد ثم عاد الى نيسابور فلما رأى ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه الى بغداد ثانيا بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالاكرام ووعده أن يرسل معه جيشا لمحاربة طغرل وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرل حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرل واستقر الأمر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبى الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه)

كان هـذا الخلاف بين البيت السلجوقى مقويا للمسترشد فصار يعد نفسه صاحب الأمر الذى يجب أن يطاع لا بالقوة المعنوية وحدها بل بقوة السيف أيضا فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت الى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة الا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء فان العصبية الجنسية غلابة مهما كانت الأحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز كثير من عسكر الخليفة الأتراك الى السلطان مسعود فانهزم جند الخليفة أما هو فبقى ثابتاً حتى أسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامة أهلها وخرجوا من الأسواق يحثون التراب على رءوسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات

فى الأسواق يلطمن

أما الخليفة فقد جعله السلطان فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وألا يعود الى جمع العساكر وألا يخرج من داره فأجيب الى ذلك ولم يبق الا أن يعود الخليفة الى بغداد الا أنه صادف أن هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك فى يوم الأحد ١٧ ذى القعدة على باب مدينة مراغة وكان المسترشد شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة وكان فصيحا بليغا حسن الخط قال ابن الأثير ولقد رأيت خطه فى غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد

---

٣٠ ـ الراشد بالله

بويع بالخلافة بعد المسترشد بالله ابنه أبو جعفر المنصور الراشد بالله وكان ولى العهد فلما مات أبوه جددت له البيعة فى ٢٧ من ذى القعدة وكتب السلطان الى شحنة بغداد بالبيعة له وحضر بيعته ٢١ رجلا من أولاد الخلفاء

لم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظا من أبيه معه بل حاول الراشد أن يثأر لأبيه ويحل سلطنة مسعود فاتفق مع داود بن السلطان محمود أخى مسعود ومع كثير من أمراء الاطراف على مقاومة مسعود وخلعه ولما سمع بذلك

مسعود أقبل مسرعا صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها ولكن مسرعان ما اختلفت كلمة الأمراء الذين خالفوا الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أكبرهم شأنا عماد الدين زنكى صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد فى رفقة عماد الدين ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافرا وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده انى متى جندت أوخرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الأمر . فافتوا بخروجه من الخلافة . وكانت خلافته ١١ شهرا و ١١ يوما

---

٣١ – المقتفى لامر الله

هو أبو عبد الله الحسين المقتفى لأمر الله بن المستظهر اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضر بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته فى ثامن ذى الحجة سنة ٥٣٠ (٧ سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر فى الخلافة الى أن توفى ثانى ربيع الأول سنة ٥٥٥ (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و ١٦ يوما وكان عمره اذ توفى ٦٦ سنة

ولما بايع السلطان المقتفى صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة ألف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده . وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع مابذل

من المجهود العظيم لم ينجح فقد ائتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردى بنواحى أصفهان

استمر السلطان مسعود فى سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه الى أن توفى سنة ٥٤٧ بهمذان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرلبك وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت اليها . وكان رحمه الله حسن الأخلاق كثير المزاح والتبسط مع الناس وكان كريما عفيفا عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الأخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود

أما الخليفة فانه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلجوقية بها وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل ما لهم فيها وكل من عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجند وتقدم باراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوى جنده

أصبح ذلك الملك العظيم الذى أسسه طغرل بك واخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهبا تقاسمته دول شتى تعرف بالدول الاتابكية وها نحن أولاء نقتص حديثها

الاتابكية

من الدول التركية التى زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدول الاتابكية وبيوتها شتى لاتنتهى الى نسب واحد الا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقى واتابك كلمة تركية معناها مربى الملك فكان آل سلجوق اذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام

قد وصل بعض هؤلاء الاتابكية الى درجة الملك فى بعض الأقاليم الاسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الاتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضا الى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنسوق أخبارها بالاجمال حسب ترتيب ظهورها

١ — شاهات خوارزم

ينسبون الى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكا لأمير من أمراء السلجوقيين اسمه بلكباك اشتراه من رجل من غرشستان فقيل له أنوشتكين غرشه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدما مرجوعا اليه وولد له ولد سماه محمد . وهو بانى هذا البيت علمه أبوه وخرجه وأحسن تأديبه وتقدم بنفسه بالعناية الالهية فولاه الأمير حبشى قائد

بركياروق خوارزم ولقبه خوارزمشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسنا ومحله علوا . ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمد خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره . ولم يزل على جلالة القدر والكفاية الى أن توفى سنة ٥٢١ فولى بعده ابنه أتسز فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدما وعلوا ورسخت أقدام هذا البيت فى الملك وقد استمر الى سنة ٦٢٨ حيث زال على أيدى التتر الذين هاجوا البلاد الاسلامية بزعامة جنكيزخان كما سيأتى توضيحه وهذا ثبت ملوك الخوارزمشاهية

(١) أنوشتكين	٤٧٠ ـ ٤٩٠
(٢) قطب الدين محمد بن أنوشتكين	ـ ٥٢١
(٣) أتسز بن محمد	ـ ٥٥١
(٤) ارسلان بن أتسز	ـ ٥٦٨
(٥) سلطانشاه محمود بن ارسلان	ـ ٥٦٨
(٦) تكش بن ارسلان	ـ ٥٩٦
(٧) علاء الدين محمد بن تكش	ـ ٦١٧
(٨) جلال الدين منكبرتى بن محمد	ـ ٦٢٨

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر

٢ ـ الدولة الارتقية

تنسب هذه الدولة الى أرتق بن أكسب التركمانى وهو مملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى وقائد من قواده

وأول من أسس هذا البيت معين الدولة سقمان بن أرتق استولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥ من يد الأمير موسى التركمانى فى عهد السلطان بركياروق ابن ملكشاه ثم ضم اليها ماردين

وفى سنة ٥٠٢ انقسمت هذه المملكة الصغيرة الى مملكتيه احداهما بالحصن والثانية بماردين فأما مملكة الحصن فاستمرت الى سنة ٦٢٠ وانتهت على أيدى الأيوبيين ـ وأما مملكة ماردين فاستمرت الى سنة ٨١١ أى بعد ظهور آل عثمان بمائة واحدى عشرة سنة وانتهت على يد قره قيونلى وهذه أسماء ملوك الحصن

(١)	معين الدولة سقمان بن ارتق	٤٩٥ ـ ٤٩٨
(٢)	ابراهيم بن سقمان	ـ ٥٠٢
(٣)	ركن الدين داود بن سقمان	ـ ٥٤٣
(٤)	فخر الدين قره ارسلان بن داود	ـ ٥٧٠
(٥)	نور الدين محمد بن ارسلان	ـ ٥٨١
(٦)	قطب الدين سقمان بن محمد	ـ ٥٩٧
(٧)	ناصر الدين محمود بن محمد	ـ ٦١٩

(٨) ركن الدين مودود بن محمود	ـ ٦٢٠

وهذه أسماء ملوك ماردين

(١) نجم الدين غازى بن أرتق	٥٠٢ ـ ٥١٦
(٢) حسام الدين تيمورتاش بن غازى	ـ ٥٤٧
(٣) نجم الدين البى بن تيمورتاش	ـ ٥٧٢
(٤) قطب الدين غازى بن البي	ـ ٥٨٠
(٥) حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازى	ـ ٥٩٧
(٦) ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازى	ـ ٦٣٧
(٧) نجم الدين غازى بن ارتق ارسلان	ـ ٦٥٨
(٨) قره أرسلان بن غازى	ـ ٦٦١
(٩) شمس الدين داود بن قره أرسلان	ـ ٦٩٣
(١٠) نجم الدين غازى بن قره أرسلان	ـ ٧١٢
(١١) شمس الدين صالح بن غازى	ـ ٧٦٥
(١٢) المنصور أحمد بن صالح	ـ ٧٦٩
(١٣) الصالح محمود بن أحمد	ـ ٧٦٩
(١٤) المظفر داود بن صالح	ـ ٧٧٨
(١٥) الظاهر مجد الدين عيسى بن داود	ـ ٨٠٩
(١٦) صالح بن داود	٨٠٩ ـ ٨١١

وصالح هذا آخر ملك من موالى السلجوقيين

٣ ـ اتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة سنة ٤٩٧ وأول ملوكها سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين وأصله مملوك الملك تتش بن الب أرسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان اتابك ولده دقاق . وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره فلما توفى دقاق سنة ٤٩٧ خطب اتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر ١٢ سنة وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدها فملكها ولما عاد منها منعه طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق . وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الافرنج فى القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن الى الناس و بث فيهم العدل فسروا به سرورا كثيرا وقد استمر الملك فى عقبه ٥٢ سنة وانتهى على يد آل زنكى سنة ٥٤٩ وهذا ثبت ملوكهم

(١)	سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين	٤٩٧ ـ ٥٢٢
(٢)	تاج الملوك بورى	ـ ٥٢٦
(٣)	شمس الملوك اسمعيل	ـ ٥٢٩
(٤)	شهاب الدين محمود	ـ ٥٣٣
(٥)	جمال الدين محمد	ـ ٥٣٤
(٦)	مجير الدين أبق	ـ ٥٤٩

٤ ـ اتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٢١ وتنسب الى عماد الدين زنكى بن أق سنقر وكان أق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقى وكان معدودا من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيها ثم التحق بالسلطان بركياروق بعد وفاة ملك شاه وسار فى خدمته . وكان تتش يمنى نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليسطو عليها فأرسل بركياروق اليه الجنود عليهم أق سنقر فالتقى الفريقان عند نهر سبعين قريبا من تل السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتتلوا فانهزم من مع أق سنقر وثبت هو فأسر ثم قتل صبرا وكان أحسن الأمراء سياسة وحفظا لرعيته

وقد نشأ ابنه اتابك عماد الدين زنكى فى كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لما لابيه من الأيادى البيضاء فى حفظ بيتهم ولأنه قتل فى الدفاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذاهمة مقداما وكانوا يستعينون به فى مهماتهم فيكفيهم اياها وما زال ينبه ذكره وتقوى همته حتى ولاه السلطان محمود مدينة الموصل سنة ٥٢١ ليقوم بحفظها واصلاح شأنها وجعله اتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليربيه

أظهر زنكى فى ولايته كفاية وقوة وصلاحا وكان له فى جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له وهو رأس الاتابكية من بيت زنكى وقد انقسمت الى أربعة دول

الاولى اتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها

(١)	اتابك عماد الدين زنكى	٥٢١ ـ ٥٤١
(٢)	سيف الدين غازى بن زنكى	ـ ٥٤٤
(٣)	قطب الدين مودود بن زنكى	ـ ٥٦٥
(٤)	سيف الدين غازى بن مودود	ـ ٥٧٦
(٥)	عز الدين مسعود بن مودود	ـ ٥٨٩
(٦)	نور الدين أرسلا نشاه بن مسعود	ـ ٦٠٧
(٧)	عز الدين مسعود بن أرسلا نشاه	ـ ٦١٥
(٨)	نور الدين أرسلا نشاه بن مسعود	ـ ٦١٦
(٩)	نصير الدين محمود بن مسعود	ـ ٦٣١
(١٠)	بدر الدين لؤلؤ	ـ ٦٥٧
(١١)	اسمعيل بن لؤلؤ	ـ ٦٦٠

وبدر الدين لؤلؤ ليس من هذا البيت بل هو مولاهم استقل بأمر الملك بعد سيده نصير الدين محمود وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول

٥ ـ اتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤١ وهى السنة التى قتل فيها عماد الدين زنكى فان مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي الذى ملك الموصل ومحمود نور الدين الذى ملك حلب وانتهت سنة ٥٧٧ على أيدى الايوبيين ولم يكن منها الا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكى والثانى الصالح اسمعيل ابن محمود

ومحمود نور الدين هذا هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة فى جهاد الصليبيين

---

٦ ـ اتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٦٦ بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى بن مودود الذى كان ولى عهد أبيه وهو أصغر الأخوين وهذا ملك الموصل والثانى عماد الدين زنكى ابن مودود وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود . وانتهت هذه الدولة سنة ٦١٧ على أيدى الأيوبيين وهذا ثبت ملوكها

(١) عماد الدين زنكى بن مودود ٥٦٦ ـ ٥٩٤

(٢) قطب الدن محمد بن زنكى — ٦١٦

(٣) عماد الدين شاهنشاه — ٦١٦

(٤) عمر — ٦١٧

٧ ـ اتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٧٦ بعد وفاة سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهو الأكبر وهذا ملك الموصل والثانى سنجر شاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت فى يد أولاده الى سنة ٦٤٥ حيث أخذها الايوبيون والذين تولوها هم

(١) معز الدين سنجر شاه ٥٧٦ ـ ٦٠٥

(٢) معز الدين محمود بن سنجر شاه — ٦٤٨

(٣) مسعود بن محمود — ٦٤٨

٨ ـ اتابكية اربل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٩ أسسها زين الدين علي كچك بن بكتكين وهو مملوك تركمانى لعماد الدين زنكى جعله اتابك ولده قطب الدين مودود وقد فتح بلادا كثيرة فى بدء الدولة الزنكية كان بيده منها سنجار وحران وقلعة عقر

الحميدية وقلاع الهكارية وتكريت وشهرزور وغيرها واستمر كذلك الى سنة ٥٦٣ وقبل أن يموت سلم جميع ما بيده الى قطب الدين مودود ولم يبق له سوى اربل فسار عن الموصل وأقام بها وفى هذه السنة توفى فولى بدله ابنه زين الدين أبو المظفر يوسف وهو الصغير تعصب له مجاهد الدين قايماز وكان أخوه الأكبر مظفر الدين كوكبورى فحاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فسار الى الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازى بن مودود فأقطعه حران فأقام بها مدة ثم انتقل الى خدمة صلاح الدين يوسف فحظى عنده وتمكن منه وزاد صلاح الدين فى اقطاعه الرها وزوجه أخته وقد حضر معه كثيرا من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة فلما توفى أخوه يوسف سنة ٥٨٣ رده صلاح الدين الى ملكه باربل فاستقر فيه الى أن مات سنة ٦٣٠ وأوصى ببلاده قبل موته للخليفة العباسى فبقيت بأيدى العباسيين الى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا

---

٩ ــ اتابكية اذربيجان

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٦ ومؤسسها هو الأمير ايلدكز وكان مملوكا للكمال السميرمى وزير السلطان محمود السلجوقى فلما قتل الكمال سار ايلدكز الى السلطان محمود . ولما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره . ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والرى وما اليهما من البلاد وخطب بالسلطنة

لارسلا نشاه بن طغرل وهو ربيبه وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم انما كانت له جراية تصل اليه وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت

(١) شمس الدين ايلدكز	٥٣١ ـ ٥٦٨
(٢) محمد البهلوان جهان بن ايلدكز	ـ ٥٨١
(٣) قزيل أرسلان عثمان بن ايلدكز	ـ ٥٨٧
(٤) أبو بكر بن محمد	ـ ٦٠٧
(٥) مظفر الدين أزبك بن محمد	ـ ٦٢٢

وقد انتهت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم

---

١٠ ـ اتابكية فارس (الدولة السلغرية)

ابتدأت هذه الدولة بفارس سنة ٥٤٣ وتنسب الى سلغر أحد قواد التركمان فى عهد السلاجقة وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ على أيدى المغول وهذا ثبت ملوكها

(١) سنقر بن مودود بن سلغر	٥٤٣ ـ ٥٥٧
(٢) زنكى بن سنقر	ـ ٥٩١

(٣) دكلا بن زنكى ٥٨١ ـ ٥٩١

(٤) سعد بن زنكى ـ ٦٢٣

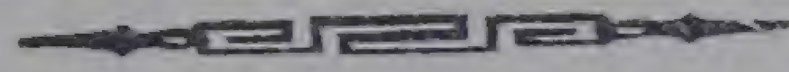
(٥) أبو بكر بن سعد ـ ٦٥٨

(٦) محمد بن سعد ـ ٦٦٠

(٧) محمد شاه بن محمد ـ ٦٦٠

(٨) سلجوقشاه بن سلغر بن سعد ـ ٦٦٠

(٩) ابيش بن سعد بن أبى بكر ـ ٦٨٦



١١ ـ اتابكية لورستان (الهزار سبيه)

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤٣ وهى من فروع الدولة السلغرية اتابكية فارس أسسها أبو طاهر أحد قوادهم وهذ ثبت ملوكهم

(١) أبو طاهر بن محمد ٥٤٣ ـ ٦٠٠

(٢) نصرة الدين هزارسب بن أبى طاهر ـ ٦٥٠

(٣) دكلا بن هزارسب ـ ٦٥٧

(٤) شمس الدين الب ارغو بن هزارسب ـ ٦٧٣

(٥) يوسف شاه الأول بن الب ارغو ـ ٦٨٧

(٦) افراسياب الأول بن يوسف ـ ٦٩٦

(٧) نصرة الدين أحمد بن الب ارغو ـ ٧٣٣

(٨) ركن الدين يوسف شاه الثانى بن أحمد — ٧٤٠

(٩) مظفر الدين افراسياب الثانى ين يوسف شاه — ٧٥٦

(١٠) شمس الدين هوشانج بن افراسياب الثانى — ٧٨٠

(١١) أحمد — ٨١٥

(١٢) أبو سعيد — ٨٢٠

(١٣) حسين — ٨٢٧

(١٤) غياث الدين ...

وقد انتهت هذه الدولة على أيدى الدولة التيمورية

شاهات أرمينية

ابتدأت دولتهم سنة ٥٨٣ ومؤسسها هو الأمير سقمان القطبى بمدينة خلاط وكان مملوكا لقطب الدين اسمعيل السلجوقى صاحب مدينــة من أذربيجان ومن ثم قيل له القطبى نشأشهما كافيا وكانت خلاط لبنى مروان وظلموا واشتهر عدل سقمان فاتفق أهل خلاط وكاتبوه فجاء وفتحوها له وسلموها اليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت

(١) سقمان القطبى ٤٩٣ — ٥٠٦

(٢) ظهير الدين ابراهيم شاه ارمن — ٥٢١

(٣) أحمد — ٥٢٢

(٤) ناصر الدين سقمان — ٥٧٩

سيف الدين بكتيمور ٥٧٩ ـ ٥٨٩

كان مملوكا لهم وهو صاحب ميافارقين

بدر الدين أق سنقر ٥٨٩ ـ ٥٩٤

اسمه هزار ديناری وهو مملوك أق سنقر وزوج بنته

المنصور محمد بن بكتيمور ٥٩٤ ـ ٦٠٣

عز الدين بلبان ـ ٦٠٤

وقد انتهت دولتهم على أيدى الأيوبيين

الدولة الغورية

مما يضاف الى الدول التى حدثت فى هذا العهد الدولة الغورية وهى دولة قامت على أطلال الدولة السبكتكينية . تنسب هذه الدولة الى مكان نشأتهاوهو الغور وهو جبال وولاية بين هراة وغزنة وهى بلاد باردة واسعة موحشة وهى مع ذلك لاتنطوى على مدينة وأكبر مافيها قلعة يقال لها فيروزكوه قام بهذه البلاد آل سام من سنة ٥٤٣ وملكوا ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملكهم قائما الى سنة ٦١٢

وأول من قام من هذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سورى بن الحسين فقوى أمره وتمكن

فى ملكه فجمع عسكرا كثيرا وسار الى غزنة طالبا بثأر أخيه فلما وصل غزنة ملكها وهرب عنها بهرامشاه الى الهند فجمع جوعا كثيرة وعاد الى غزنة وهوى أهلها معه فخرج سورى الى لقائه فلما تصاف العسكران أسلم سورى جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة سنة ٥٤٤ وكان سورى أحد الأجواد له الكرم الغزير والمروءة العظيمة

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة سنة ٥٥٠ وملكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمدا وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية

ومات علاء الدين سنة ٥٥٦ فملك بعده غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام بن الحسن وكان عضده الأقوى أخوه شهاب الدين محمد وقد حسنت سيرتهما وقويت جوعهما فملكا بلاد الغور والافغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين سنة ٥٨٢ بعد أن ملكوا ٢١٣ سنة تقريبا

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم خطب لغياث الدين وتلقب بألقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدويخ ملوكها وقد بلغا منهم مالم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلى كرسى الممالك التى فتحها من بلاد الهند

وأقطعها مملوكه قطب الدين ايبك وقطب الدين هذا هو مؤسس بيت سلاطين دهلى الذين استمر ملكهم من سنة ٦٠٢ وهى السنة التى توفى فيها شهاب الدين الغورى الى سنة ٦٨٦ وهذا ثبت ملوك هذا البيت

(١) ايبك قطب الدين	٦٠٢ - ٦٠٧
(٢) ارم شاه	- ٦٠٨
(٣) التمش شمس الدين	- ٦٣٣
(٤) فيروزشاه الأول ركن الدين	- ٦٣٤
(٥) رضيا	- ٦٣٨
(٦) بهرام شاه معز الدين	- ٦٣٩
(٧) مسعود شاه علاء الدين	- ٦٤٤
(٨) محمود شاه الأول نصر الدين	- ٦٦٤
(٩) بلبن غياث الدين	- ٦٨٦
(١٠) كيقباذ معز الدين	

وغياث الدين الغورى وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هى ثانى مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية

وفى عهد المقتفى حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها أن الافرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ماهالهم فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم فقرروا طلب الاعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا لذلك رسلا أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشى أن يكون سلفه أسبق الى الفوز منه فأرسل دعاته الى فرنسا وملكها لويز السابع

فأجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرها بين يدى المسلمين وأرسلت الدعاة أيضا الى المانيا وملكها كونراد الثالث فأجاب الداعية أيضا وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية

وقد وصل الى القسطنطينية أولا الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل بن اليكسيوس الأول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكايد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه

ذهب الالمان أولا مجتازين بلاد قونية بلاد السلاجقة فلقيهم هؤلاء بحرب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائباً كسيرا حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بفلول جيشه حتى وصلوا الى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألواناً وذلك سنة ٥٤٢ وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب الى مدينة دمشق والاستيلاء عليها وكان صاحبها اذ ذاك آخر الدولة الاتابكية وهو مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغتكين والأمر فى دولته لمولاه معين الدين أنز . سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود افرنج الشام حتى وصلا دمشق سنة ٥٤٣ وحاصروها فزحف اليهم أهل البلد مجدين فى ردهم وأبلوا بلاء حسناً . كان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازى صاحب الموصل فأجاب الداعى وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محمودا نور الدين وسارا حتى أتيا حمص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا الى بلادهم من غير أن يحدثوا أثرا وفى سنة ٥٤٩ استولى محمود نور الدين على دمشق

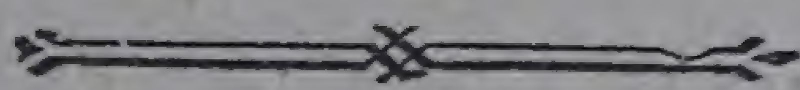
هذه هى الدول التى ورثت ملك السلاجقة العظيم

نعود الآن الى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود قلنا انه كان عهد الى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلا ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل الى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم انه دخل الى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح فى قتله عنزان واستقر محمد فى السلطنة وأرسل الى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من اجابته الى ذلك فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحو العراق ووصل اليها فى ذى الحجة سنة ٥٥١ وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامة ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمدا لايناصحونه لأجل الخليفة والمسلمين ففتروا وقصروا وبينماهم على تلك الحال ورد خبر الى السلطان محمد بأن أخاه ملكشاه بن محمود ومعه ايلدكز صاحب بلاد اران والملك ارسلان بن طغرل قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد وأموالهم فلما سمع ذلك محمد جد فى القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شىء ورحل عنها نحو همذان فى أواخر ربيع الأول سنة ٥٥٢ ولما قارب همذان خرج منها خصومه خائبين خائفين

استقر محمد فى دار ملكه بأصفهان وصار العراق للخليفة لايشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتفى فى زمنين متقاربين فأما محمد فانه

توفى بهمذان سنة ٥٥٤ وقد اختلف قواده بعد موته اختلافا كثير فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيرا تم الامر لارسلان بن طغرل بواسطة المقدم يلدكز وكان هذا السلطان ربيبه

أما الخليفة المقتفى لأمر الله فانه توفى ثانى ربيع الأول سنة ٥٥٥ وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم الى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر الى الآن الا أن يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى البلاد حتى كان لايفوته منها شىء وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكبير



٣٢ ـ المستنجد بالله

هوابو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله وأمه أم ولد اسمها طاوس رومية ولد سنة ٥١٠ وبع بالخلافة عقب وفاة والده واستمر خليفة الى أن مات فى تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦

فكانت خلافته ١١ سنة وشهرا وأسبوعا

والمستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين ومن مآثرة أنه لما ولى أزال

المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئاً وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال الخليفة أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الأموال على أصحابها أيضا

ومن أعماله أنه حل المقاطعات وأعادها الى الخراج وهذا عمل حسن الا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا به ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور

وكان ملك السلاجقة لعهده أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شيء من السلطان فى بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه

---

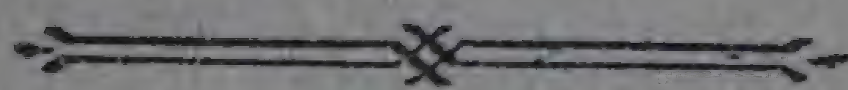
٣٣ ــ المستضىء بالله

هوأبو محمد الحسن بن المستنجد بالله وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ماجرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم ير وامثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا . وكانت وفاته ثانى ذى القعدة سنة ٥٧٥

وفى عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية بهمة مؤسسها المقدام صلاح الدين الأيوبى يوسف بن أيوب الذى ظهر فى كنف محمود نور الدين الشهيد وكان ذلك فى محرم سنة ٥٦٧ حيث قطعت خطبة الخليفة العاضد لدين الله واستيفاء ذلك فى تاريخ مصر والذى خطب له من العباسيين هو المستضىء بالله

وفى عهده توفى خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز وملك بعده ابنه سلطانشاه بتدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الأكبر علاء الدين تكش جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك

وفى عهده توفى الرجل العظيم ذو القدم الثابتة فى فعال الخير وفى جهاد الافرنج وهو محمود نور الدين بن زنكى وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله قال ابن الأثير فى تاريخه وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وله أخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة



٣٤ – الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضئ بن المستنجد وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد

بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستضئ فى ٢ ذى القعدة سنة ٥٧٥ (٣٠ مارس سنة ١١٨٠) ولم يزل خليفة الى أن توفى فى آخر ليلة من رمضان سنة ٦٢٢ (١٦ اكتوبر سنة ١٢٢٥) فكانت خلافته ٤٦ سنة وعشرة أشهر و٢٨ يوما وهو أطول خلفاء بنى العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين الا المستنصر بالله معه فانه ولى ٦٠ سنة ولا من خلفاء بنى أمية بالاندلس الا عبد الرحمن الناصر فانه ولى ٥٠ سنة

حال الممالك الاسلامية لعهده

كان فى الاندلس وشمال افريقية دولة الموحدين . وفى عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المرينى سنة ٥٩١ وهو من أعقاب الموحدين

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الاتابكية

وكان بقونية دولة سلاجقة الروم

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغريل الثانى وهو آخر سلاجقة العراق

وكان بخوارزم وخراسان وما اليها الدولة الخوارزمشاهية والقائم بالأمر منهم السلطان تكش بن ايل ارسلان الى سنة ٥٩٦ ثم علاء الدين محمد الى سنة ٦١٧ ثم جلال الدين منكبرتى الى سنة ٦٢٨ وهو آخرهم

وكان بالغور والافغان والهند الدولة الغورية

فى عهد الناصر لدين الله انتهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة ٥٩٠ بقتل طغريل بن الب ارسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذى اتسع ملكه جدا فصار ملكه ممتدا من أقاصى بلاد ما وراء النهر شرقا الى بلاد الرى التى أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالرى ثابتا فان الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل اليها جندا مع وزيره فاستردها بعد أن حارب عسكر خوارزمشاه لكن ذلك لم يطل فان خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع فحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفى سنة ٥٩٦ توفى وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه محمد وزاد ملكه اتساعا

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذى جعل كثيرا من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر انما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس هذا ببعيد وكان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل

الحادث العظيم في البلاد الاسلامية

اغارة المغول والتتار

من أكبر الحوادث فى التاريخ الاسلامى خروج طوائف المغول والتتر الى البلاد الاسلامية واستيلاؤهم على معظمها فى آسيا وشرقى أوربا وأول فتح هذا الباب كان على يدى جنكيزخان المغولى وخوارزمشاه محمد بن تكش الخوارزمى

التتر شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرع معظم بطونها وأفخاذها وهو مرادف للترك عند الافرنج حتى انهم يعدون قبائل الاتراك كافة تترا ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أواسكوتيا ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ألنجه خان أحد ملوك الترك فى الازمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تتارخان ومغل خان نحو ربيعه ومضر فى الامة العربية

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد الى أن وقع النزاع بين الشعبين فى عهد ايلخان ملك المغل وسونج خان ملك التتر وجرّ هذا النزاع الى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل ايلخان ملك المغل وصارت السيادة من ذلك الوقت للتتر فاستعبدوا المغل مدة طويلة الى أن جمع المغل جموعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم فعادت السيادة من ذلك الوقت الى المغل وصار الملك متوارثا فيهم الى زمن يسوكى بهادرخان والد جنكيز

ولد جنكنزخان سنة ٥٤٩ وكان اسمه فى صغره تموجين . توفى أبوه وسنه ١٣ سنة ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغل تموجين فتفرقوا عنه وكان ذلك سببا لحصول الفتن وتمادى الحروب بينهم

ولما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التى لا تساويها عزيمة اجتهد فى أن يلم شعث قومه فنجح فى ذلك نجاحا عظيما وعادت قبائل المغل الى الانضمام اليه وكثرت جموعه وعظم أمره فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعاً بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التى لا يعلم عددها الا الله . وعاصمة ملكه مدينة قراقروم

ولما لم يبق له معارض فكر فى ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم دينا يسيرون على مقتضاه فوضع لهم الياساق أو الياسة وهى كتابهم الذى اليه يرجعون فى معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لايستجيزون أن يخلوا بشئ منها

ومما شرعه فيها أن من زنى يقتل لافرق بين محصن وغيره . ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل . ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل . ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل . وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه الى أن يموت ثم يؤكل لحمه . وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح . ومن وقع حمله أو قوسه أو شئ من متاعه وهو يكر أو يفر

فى حال القتال وكان وراءه واحد فانه ينزل و يناول صاحبه ماسقط منه فان لم ينزل ولم يناوله قتل . وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤنة ولا كلفة . وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الاطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤمنين ومغسلى الاموات كلفة ولا مؤنة . وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى • وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير . وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شئ وغيره يراه بل يشركه معه فى أكله • وألزمهم أن لا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه . وان مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل و يأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحدهم منعه . وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده فى الماء ولكن يتناول الماء بشىء يغترفه به • ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى . ومنع أن يقال لشىء انه نجس وقال جميع الاشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس وألزمهم أن لا يتعصبوا لشىء من المذاهب • ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره و ينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قصر فى شى مما يحتاج اليه عند عرضه اياه عاقبه وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال وجعل على العساكر اذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان و يؤدونها اليه . وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبكار على السلطان ليختار

منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات . وشرع أن أكبر الأمراء اذا أذنب وبعث اليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقى بنفسه بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل . ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير اذن قتل والزم السلطان باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة

﴿ تنبيه ﴾ كان من هذه الياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . روى المقريزى فى خططه عن أحمد بن البرهان أنه رآها ومنه نقلنا ما ذكرنا

خروج المغول الى البلاد الاسلامية

قد أكثر المؤرخون فى ذكر الأسباب التى دعت جنكيزخان وقومه للخروج الى البلاد الاسلامية فقال بعضهم ان خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب الى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصر لدين الله الى جنكيزخان يحرضه على الخروج الى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويشتغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بنى العباس أن فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغرلبك شاه السلجوقى ليخلصهم من تحكم البساسيرى حينما أراد تحويل الدعوة الى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق أن هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغل فكانوا كفارا ولا نبدى

هذا الفرق استبعادا للمكاتبة لأن ذا الملك لا يبالى بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغى الا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العدواة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما أنه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لان بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الاطراف وبينه وبينهم ذلك الأسد الهصور ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يجفل أمام جنكيزخان كالحمامة تجفل من صقرها . وهذا السبب وان كان مطمعا لجنكيزخان فى البلاد الاسلامية ولكنه كان يتطلب سببا آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال انه فى سنة ٦١٢ أرسل رسلا الى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب الى الآخر وأرسل اليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل الى خوارزمشاه أجاب الى ذلك فرجعوا الى جنكيزخان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيزخان ومكث الامر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين

وفى سنة ٦١٥ سافر تجار من بلاد جنكيزخان حتى وصلوا الى بلدة أترار وهى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل نهر سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالى فى أخذ أموالهم فأرسل قاصدا الى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيزخان قد قدموا فى زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالى المشؤم الى ذلك وأرسل الى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها . فلما بلغ

علم ذلك الى جنكيز خان أخذه المقيم المقعد وأرسل الى خوار زمشاه يخبره بصورة الحال ويطلب منه غايرخان ذلك الوالى ليقتص منه فلم يكن من الأحمق خوار زمشاه الا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيز خان استشاط غضبا وصمم على قصده وحربه . وعلم خوار زمشاه أنه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئاً بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه فلقى هناك جموعا قليلة متخلفة فى النساء والصبيان لأن جنكيزخان كان غائبا بجنده فى داخل بلاده فلم يمكن خوار زمشاه أن ينتصر على هذا العدو القليل فعلم أن له يوما ضروساً اذا تحرك عليه جنكيز وهو لابد فاعل فأمر خوار زمشاه سكان تلك المدن العظيمة التى على حدود بلاده أن يجلوا عنها خوفا عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهل بهذا العمل السبيل الى عدوه ثم عاد أما جنكيز خان فانه جمع عساكره الجرارة التى تفوت عد العادين وعبر نهر سيحون وليس أمامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن قصده وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفا من الجنود الخوارزمية فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضى بدر الدين قاضيخان يطلب الأمان للناس فأمنهم جنكيز ودخل هو وجنده البلد فى رابع ذى الحجة سنة ٦١٦ وأعلن أهله بأن كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه الينا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجار التى باعكم اياها خوار زمشاه فانها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شىء منها ما عنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجردين من أموالهم

وأعمل التتر النهب فى البلد وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقتسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس

ثم رحلوا نحو سمرقند وهى قصبة ماوراء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيا عن المشى قتل

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه فخاموا عن اللقاء لما دخل قلبهم من الرعب والخور أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة فقاتلتهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم كميناً يأتيهم من خلفهم فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد ورجع عليهم الباقون من الامام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظمهم ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لأن الكل أتراك فطلبوا الأمان فأمنوا وفتحت البلد فخرجوا الى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحتهم فنزعوها واذ ذاك وضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم وفى اليوم الرابع نادوا فى البلد أن لا يتأخر بها أحد ومن تأخر قتلوه وهكذا فعل التتر بسمرقند مافعلوه ببخارى وكان ذلك فى المحرم سنة ٦١٧

ولما تم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفا من أشداء جنوده وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه فساروا

وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيما بغربيه يستعد وقد ملئ قلبه رعبا فلما علم بقدوم التتر عليه لم ير الا أن ينهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لايلوي على شيء وقصد مدينة نيسابور فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار الى مازندران والتتر على أثره ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له فى البحر فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به

وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربة لأنهم ساروا الى غرب خراسان وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقه العراقيه التى قصدت البلاد الاسلامية بالتخريب والافساد قبل أن ينساح السلاجقه و يستولوا على البلاد . ولما أيس التتر من اللحاق به ساروا الى مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها . ثم ساروا نحو الرى وقد انضم اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار ومن المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون فوصلوا الى الري على حين غفلة من أهلها فملكوها وفعلوا بها الافاعيل وكانوا ينهبون في طريقهم كل قرية مروا عليها . ثم ساروا الى همذان فطلب صاحبها الامان فأمنوه هو ومن معه ثم وصلوا الى قزوين فدخلوها عنوة ويقال ان من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفا . ثم ساروا الى أذربيجان فوصلوا الى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشراب ليلا ونهارا لا يفيق وانما أرسل اليهم وصالحهم فساروا عنه الى ساحل البحر ليشتوا فيه فوصلوا الى موقان وتطرقوا

فى طريقهم الى بلاد الكرج فثار بهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا الى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم على دفع التتر وكذلك أرسلوا الى الملك الاشرف بن العادل الأيوبى صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام اليهم وظنوا جميعا أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضاف اليهم مملوك من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم فاجتمع اليه خلق كثير وارسل التتر فى الأنضمام اليهم فأجابوا الى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعا حتى وصلوا تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يجدهم شيئاً فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى وكانت الوقعة فى ذى القعدة سنه ٦١٧

ولما دخلت سنة ٦١٨ كروا راجعين الى مدينة مراغة فملكوها عنوة ووضعوا السيف فى أهلها ونهبوا كل ما صلح لهم ومالا يصلح أحرقوه ثم رحلوا عنها قاصدين اربل لكنهم هابوا الهجوم عليها لخوفهم أن تجتمع بالجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا الى همذان وساروا الى بلاد اذربيجان ومنها ساروا الى دربند شروان فاستولوا على مدينة شماخى عنوة وخرجوا من الدربند الى البلاد الشمالية وهى دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التترفيهم قتلا وسبياً والذى لقى حد هذه الحروب أمة القفجاق فكثر فيهم القتل والاسر فتفرقوا أيدى سبا فى جميع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشتري منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الايوبية ومنهم المعز ايبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يدا واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدا بلغار أواخر سنة ٦٢٠ فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته

أما جنكيز خان فانه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشا عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد سنة ٦١٧ ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئا بعد شيء دون صعوبة أومقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لاهلها بسوء ولا أذى سوي انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمض الا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسيه تحت حكم التتر

وأرسل جيشا آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تهيأ لهم بها لما فعله التتر المغربة من اضعاف القوى التى كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوي مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزى أن يستولي على الدشت كله فى أسرع ما يمكن

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقا من بلاد الصين وتنتهى غربا الى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبا ببلاد الهند وشمالا بالبحر الشمالى كل ذلك تم له فى مدة قصيرة

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية الى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجى وجغطاى وتولى وأوكداى

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل أخذه الى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربى لولده الأكبر جوجى

وجعل بلاد ايغور والتركستان وما وراء النهر بأسره لولده الثانى جغطاى

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين الى منتهى حوافر خيولهم لولده الثالث تولى خان

وجعل بلاده الأصلية والخطا والصين الى منتهى المعمورة الشرقى لولده الرابع أوكداى وجعله ولى عهده من بعده ويصير قاءانا على الكل أوملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقين بمتابعته وكذا كل من يصير قاءانا من ذريته يجب على الباقين طاعته واتباعه ومن خالفه يجب على الباقين حربه حتى يفئ الى يساق جنكيزخان

هكذا قدر الرجل لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولاسلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتم كل ما توقعه

وفى سنة ٦٢٤ أدركته منيته وكان الخليفة العباسى حين وفاته المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر

وجد من آل جنكيزخان أربعة بيوت ورثت الملك وتممت الفتح حتى تهيأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءا كبيرا من أوربا

وبيت تولى هو الذى كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد

سلطان التتر على الجزيرة والشام و بلاد الروم وسنذكر ذلك فى حينه

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقدكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيرا مايفعل الأشياء ثم ينقضها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها الا من يلبس منه سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره الا مايؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الا من ينتمى اليه . هذه كانت مشاغله العجيبة والتتر يعنون فى بلاد المسلمين قتلا وأسرا وتخريبا ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا فى تاريخه الموسوم بالفخرى ثناء جما ومن ضمن ما وصفه به أنه كان يرى رأى الأمامية والظاهر أن هذا هو الذى حببه الى المؤرخ المذكور

بقى الناصر فى أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت احدى عينيه والأخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا وفى آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما وكانت بها منيته

٣٥ — الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بويع بالخلافة عقب موت أبيه وكان ولى عهده واستمر خليفة الى ١٤ رجب سنة ٦٢٣ فكانت خلافته تسعة أشهر و ١٤ يوما

لما ولى أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العمرين . قال ابن الأثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه أعاد من الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئاً كثيرا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ماجدده أبوه وكان كثيرا لايحصى . ولما أمر بأخذ الخراج الأول من جميع البلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الأول لايفى دخل الباقى بالخراج فأمر ألا يؤخذ الخراج الا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤجذ منه شىء . ومن أعماله ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال و يعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه الى الوزير وأوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم قد بلغنا كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن الى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى — فكتب بعض النواب اليه يقول ان هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدناه فى السنة الماضية

٣٥ ألف دينار . فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لوأنه . ٣٥ ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل فى اطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة - وتقدم الى القاضى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير اذن ومنها أن العادة كانت فى بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أوسماع أو غير ذلك ويكتب ماسوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أي غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد لنا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال انا ندعو الله أن يصلحهم . ومنها انه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قدسار اليها أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعدومعه مايزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكرمامعه ويستخرج الأمر فى حمله فأعاد الجواب بأن يعاد الى أربابه فلا حاجة لنا اليه فأعيد عليهم . ومنها أنه أخرج كل من كان فى السجون وأمر باعادة ما أخذ منهم وأرسل الى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان الى الرعية فجدد من العدل ما كان دراسا وأذكر من الاحسان ما كان منسيا . وقبل وفاته أخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج

منكم الى امام قوال . وقد قرىء التوقيع فاذا فى أوله بعد البسملة (اعلموا أنه ليس امهالنا اهمالا ولا اغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ماسلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلى في صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال ولاجتياح استيفاء واستدارا كالاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من برائن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا و بفقركم غنى و بباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الامن أصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه والا هلكتم والسلام)

ولم تتمتع الأمة بهذا الخليفة طويلا فانه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته

٣٦ ـ المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر

بويع بالخلافة يوم وفاة والده ١٤ رجب سنة ٦٢٣ (١١ يوليه سنة ١٢٢٦) واستمر فى الخلافة الا أن توفى لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٥ دسمبر سنة ١٢٤٢) فكانت خلافته ١٧ سنة الاشهرا

كان المستنصر شهما جوادا يبارى الريح كرما وجودا وله الآثار الجليلة فى بغداد منها وهى أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلى دار الخلافة و بنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول انى أخاف ألا يثيبنى الله على ما أهبه وأعطيه لأن الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وأنا والله لا فرق عندى بين التراب والذهب

ولما ولى سلك فى الخير والاحسان الى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بافاضة العدل وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضي حاجته وتكشف مظلمته

وفى عهده توفى ملك المغول الكبير جنكيز خان سنة ٦٢٤ وحل محله فى بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته الى الغرب وأرسل فرقة الى بلاد اذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين منكبرتى وخافهم أهل اذربيجان خوفا شديدا ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذى لم يجد له نصيرا لأنه وتر الملوك المجاورين له طرا

قال ابن الأثير تعليقا على هذه الحال (فما نرى من ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو قال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

وكان مقتل جلال الدين فى منتصف شوال سنة ٦٢٨ قتل شريدا طريدا لم يفده هذا الملك العظيم الذى ورثه عن أبيه وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية الى حدود العراق ولم يتهيأ للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض وهم عن عدوهم لاهون غافلون . صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن الى آن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الدينى



٣٧ — المستعصم

هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضئ بن المستنجد بن المقتفى بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم ابن القادر بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ففى آبائه سبعة عشر خليفة

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله فى عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٦ دسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة الى أن قتل بين يدى هولاكوخان

فى ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية

قال ابن طبا طبا كان المعتصم رجلا خيرا متدينا لين الجانب سهل العريكة عفيفا اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطا مليحا وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الوطأة الا أنه كان مستضعف الرأى ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الأغانى والتفرج على المساخرة وفى بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء

حال التتر

قلنا فيما تقدم ان جنكيز خان لما حانت منيته قسم ممالكه الى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولى خان جعل له خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين الى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولى فى مملكته الجديدة يتوسع فى الفتح ويمد بلاده الى الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخومها حتى توفى سنة ٦٥٤ فى عهد المعتصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهى عند بلاد العراق فخلفه فى الملك ابنه هولاكو خان حفيد جنكيز خان فأهمه التوسع فى الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك

قال المؤرخون ان أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين

كانوا فى نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم الى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوءه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد فى مساءته ان أهل البيت العباسى كانوا يساعدون أهل السنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل فى أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا فى قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبى بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال ان الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته . وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمى بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردى فى تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمى الى وزير اربل منها انه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوى المعظم وقد نهبت العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثل بقول شخص من غزية

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمرا فصبرٌ جميل

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

فقلت من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام

ومنها

وزير رضى من حكمه وانتقامه   بطى رقاع حشوها النظم والنثر
كما تسجع الورقاء وهى حمامة   وليس لها نهى يطاع ولا أمر

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذله وهم صاغرون

ووديعة من سر آل محمد   أودعتها أن كنت من أمنائها
فاذا رأيت الكوكبين تقارنا   فى الجدى عند صباحها ومسائها
فهناك يؤخذ ثار آل محمد   وطلابها بالترك من أعدائها

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم

وابن طباطبا العلوى يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمى قال فى تاريخه وقد نسبه الناس الى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الادلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة فان السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد الى الوزير وأحسن اليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه اه والله أعلم بمقدار هذا البرها فى الانتاج

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد وفى منتصف محرم سنة ٦٥٦ نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة مايدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى باقفال الابواب فجد المغول فى القتال حتى ملكوا الاسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الاسوار تم لهم ملك البلد

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج الى هولاكو فأمره هولاكو أن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده فى نهب تلك المدينة التى كانت حاضرة الاسلام كله ثم تقدم باحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم

لهولاكو جواهر نفيسة ولآلئ ودررا معباة فى أطباق ففرق هولاكو ذلك على أمرائه

وفى رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفى أول مرحلة قتله هو وابنه الاوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة واشتفت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملة فقد جرى عليها ماجرى على سواها من أمهات المدن الاسلامية فقد قتل معظم أهلها وقليل منهم من نجا وقد استبقى المغول جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد أن فنى أكثر أهلها قوم جاؤا مع هولاكو من أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين

حال الدولة الاسلامية عند سقوط الدولة العباسية

(١) كانت بغرناطة من البلاد الاندلسية دولة بنى نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ ـ ٦٧١)

(٢) بشمال افريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبو حفص عمر المرتضى ابن اسحاق بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ ـ ٦٦٥)

(٣) وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ ـ ٦٨١)

(٤) وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبو عبد الله محمد المستنصر بالله ابن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٤٧ - ٦٧٥)

(٥) وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالأمر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ - ٦٧٥)

(٦) وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين على ابن المعز عز الدين أيبك (٦٥٥ - ٦٥٧)

(٧) وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ - ٦٧٤)

(٨) وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ - ٦٨٠)

(٩) وبالروم من السلاجقة ركن الدين قايج ارسلان الرابع (٦٥٥ - ٦٦٦)

(١٠) وبماردين من الدولة الارتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ - ٦٥٨)

(١١) وبفارس من الاتابكية السلغرية أبو بكر بن سعد بن زنكى بن مودود (٦٢٣ - ٦٥٨)

(١٢) وبلورستان من الاتابكية الهزارسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ - ٦٥٧)

(١٣) وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ - ٦٨١)

اجمال القول فى الدولة العباسية

تولى العباسيون الخلافة الاسلامية سنة ١٣٢ حيث بويع لأولهم أبى العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم الى سنة ٦٥٦ حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلا بين يدى هولاكوخان المغولى من أعقاب جنكيزخان موحد التتر الخارج بهم الى بلاد الاسلام . جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت

بنى العباس على عرش بنى أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم . استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو ١٤ سنة وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسى ٤٦ سنة وأقلها سنة فما دونها

مكثت الدولة العباسية ١٠٠ سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الاسلامى (ماعدا بلاد الاندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف فى وجه جنودهم الا منافسيهم فى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بنو عمهم من آل أبى طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حينا وتلمع حينا ثم تجئ القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة

وقام فى هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهى هذا الدور بوفاة الواثق سنة ٢٣٢

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من ٢٢٢ الى ٣٣٤ أخذت الدولة فيه فى النزول شيئاً فشيئاً وضعفت تلك المكانة التى كانت لهم فى أنفس الأمم الاسلامية واجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم الا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر الى أن يتولى ببغداد مملوك تركى أو ديلمى يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخليفة من الأمر شئ

قام فى هذا العصر اثنا عشر خليفة . وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمعتمد والقاهر والمتقى والمستكفى الذى ملك بنو بويه فى آخر عهده ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانى سنوات ونصف ولم يمت منهم موتا هادئاً الا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع وكان استيلاء بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤

جاء بعد ذلك دور ثالث من ٣٣٤ الى ٤٤٧ ليس للخليفة فيه الا اسم الخلافة والسلطان الفعلى لأمة فارسية هى الأمة الديلمية التى يمثلها سلطان من بنى بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل ما يراد منه لاما يريد وليس له على أنفس المالكين شئ من السلطان الدينى لمباينتهم له فى العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل على وآل بيته على من عداهم وانما رضوا ببقاء الخليفة العباسى ليكون أمره عليهم هينا يبقونه متى رأوا فى بقائه خيرا لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا فى ذلك مصلحتهم

وقد قام فى هذا الدور المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم ٢٢ سنة ونصف والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذى يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه

جاء بعد ذلك دور آخر من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ انتقل السلطان الفعلى فيه الى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لافى بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بنى بويه فان هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تدينا وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والاجلال مايقضى

به منصبهم الدينى

وقد ولى فى هـذا الدور المقتدى والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى والمستنجد والمستضئ ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء فى هـذه المدة على حال واحدة فانهم من عهد المسترشـد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلى فى بغداد والعراق والذى ساعـدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقـد تم استبدادهم بأمر العراق فى عهد المقتفى وانقضت دولة السلاجقة سنة ٤٩٠ على يد خوارزمشاه ونفوذهم فى العراق قد اضمحل تماما

مكث العباسيون بعـد سقوط الدولة السلجوقية ٦٦ سنة لم يكونوا فيها تحت سلطان أحـد بل كانوا مستقلين بملك العراق الى أن قام المغل والتتار بحركتهم التى ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الاسلامية فأخمد أنفاس الدولة العباسية وأزالها من بغداد على يد هولا كو حفيد جنكيزخان سنة ٦٥٦

فللدولة العباسية أدوار

١٠٠ سنة عصر القوة والعمل من	١٣٢ _ ٢٣٢
١٠٢ « عصر استبداد المماليك الأتراك من	٢٣٢ _ ٣٣٤
١١٣ « عصر استبداد الملوك من آل بويه من	٣٣٤ _ ٤٣٧
٩٤ « عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من	٤٤٧ _ ٥٣٠
١٢٦ « عصر استعادة العباسيين شيئا من نفوذهم السياسى مع تغلب القواد من	٥٣٠ _ ٦٥٦

ونريد ان نوضح هنا الأسباب الرئيسية التى أدت بهذه القوة الهائلة الى الضعف ثم التلاشى

١ ـ ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الاسلامية من أول نشأتها على العصبية العربية فهى التى كانت عمادا لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم القضاء على العصبيات الجزئية العربية واحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التى تنهى عن دعوة الجاهلية وهى قولهم يالفلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعى بدعوة الجاهلية عن الاسلام كقوله عليه السلام ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية وسبب ذلك ان هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذى هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف فى سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تآخى العدنانى والقحطانى والمضرى والربعى والقيسى والكنانى — بعد أن كانوا أوزاعا يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعا أمام الأمم التى تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية . الدين كونها وهى نصرته حتى صار أحدهما مرادفا للآخر فى نظر الأمم التى غالبها العرب على أمرها

صارت الأمة العربية على ذلك فى صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليه تؤيدهم تلك الوحدة التى أنالها الدين قوة لا تقهر

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل فى دينهم من الأمم الأخرى مالهم

من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات الا أنهم لا يدلون اليهم بالمناصب الرئيسة كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعى لا تمكن مقاومته

ولما حصلت الفرقة بين على ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد من جميع القبائل العربية اليمانون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وانما كانت فرقة أثارها الدين فى صدور قوم والتنافس فى الدنيا فى صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزيين بين الأمة العربية فان عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلى وقد أضعف ذلك كثيرا من قوة العصبية العربية

انتقل الأمر الى بنى أمية وتولاه منهم معاوية بن أبى سفيان شيخ بنى عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها الا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الاسلام يقضى عليه وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الأثر وقد اتضح ذلك وضوحا جليا بعد انتهاء البيت السفيانى وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعا قرنه العائذ بالبيت وهو عبد الله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا فى قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثرا تمكن منها حتى قال فى ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابى كلمته التى أولها

أرينى سلاحى لا أبالك اننى أرى الحرب لا تزداد الا تماديا

وفيها

فلا تحسبونى ان تغيبت غافلا ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وفيها

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمى بقرقيسيا وصارا يطلبان كلبا واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحى الجزيرة مجاورا لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار الى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر الى عمير يقول له

ألا من مبلغ عنى عميرا رسالة ناصح وعليه زارى
أتترك حى ذى يمن وكلبا وتجعل جدنا بك فى نزار
كمعتمد على احدى يديه فخانته بوهن وانكسار

وقتل فى بعض الأيام عمير بن الحباب

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين فى الأنساب والمتقاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون مايخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ماتؤثره كلماتهم فكل ما أصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبى من شعراء تغلب ذوى الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الاخطل من كلمة لهم

بنى أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصا فبايعوا لك قسرا بعد ما قهروا
ضجوا من الحرب اذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمى القيسى

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر — بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف ان تصطك يوما فتصطدم — عليك أواذى البحور الزواخر
تكن مثل اقذاء الحباب الذى جرى — به لماء أوجاري الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعرا — لدى السورة العليا على كل شاعر
يصول بجر ليس يحصى عديده — ويسدر منه ساجيا كل ناظر

فأجابه الجحاف على البديهة

بلى سوف نبكيهم بكل مهند — وننعى عميرا بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة الى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة وقد قال هذا الشيطان الخبيث فى تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة — الى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بنى مروان ما بال ذمة — وحبل ضعيف لا يزال يوصل

وقال الجحاف

أيا مالك هل لمتنى أو حضضتنى — على القتل أم هل لامنى كل لائم
ألم أفنكم قتلا وأجدع أنوفكم — بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعى عميرا بسيفه — اذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حيت هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكان الولاة بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالى اليمانى يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحى وكذلك كان الربعى والقيسى والتميمى وكان يظهر ذلك واضحا فى الولايات البعيدة عن مركز الخلافة

كخراسان ولا يخفى ان الدولة الأموية كانت ترتكز على العصبية العربية لأنها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التى ترتكز عليها . وكان من الأمم التى ملكها العرب وذاقت لهم الامة الفارسية وهى أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيي ما اندرس من تاريخها . رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لان كثيرا من الفرس كانوا قد دانوا بالاسلام فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أو الاسلام فاتجه فكر قادة الأمة الى صدمة العرب باسم الاسلام وكان بنو العباس اذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعى لاسترداد حقهم من بنى أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس فى مساجلة بنى عمهم من بنى أمية وانما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأمرين الأول انه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بنى أمية لأن العرب لم يسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت فى الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثانى ان شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون فى جانب والربعيون فى جانب والمضريون فى جانب . أما الفرس فمن السهل اثارة عواطفهم اما بحكم العصبية العنصرية واما بحكم الاسلام ورد الخلافة الى نصابها من آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم وتأثير الأول فى الخاصة من أبناء الأمة الفارسية وتأثير الثانى فى العامة

قامت الدولة العباسية وليس لها عصبية عنصرية تشد أزرها وتحمى بيضتها وانما عصبيتها هؤلاء الموالى المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالى الى استرجاع ما كان لآبائهم

من المجد الذى يتوارثون ذكره . وقد وجد من هؤلاء الموالى فى بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة فى الفارسية وفى الاسلام جعلهم العباسيون فى مقدمة من يعتمدون عليه

لم يترك العباسيون فى مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ اذا رأوا من الموالى نكوبا عن جادة نصرتهم وميلا الى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيرا من رجال العرب و حماتهم من ربيعة واليمن ومضر الا أنهم لم يلتفتوا الى ازالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجدمنهم مايدل على الميل على اغراء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر

لذلك كله يمكن أن نقول انه لم يكن للدولة العباسية فى بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى وانما كان الاسلام هو الذى يجمع بين تلك القوى والدين وان كان جامعا قويا لكنه ان لم يكن مدعما بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان مما اعتبره أساسا لقوته ومنبعا لحياته اماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم الى رجل يختارونه من الموالى ويجعلون قيادة جنودهم الى موال والى عرب ولكنهم كانوا دائما تحت تأثير الظنون والريب التى تحوم حول عقولهم من استبداد الموالى بالسلطان فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالى الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر مافعله المنصور بقائد العباسية الأكبر أبى مسلم الخراسانى وبوزيره الأول ولأبى

مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر فى احياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه امام ريب أبي جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان الى قومه وليس بنو العباس فى نظره الا واسطة لذلك فهو اذا عزم مراده معهم يتحول بدون ابطاء الى بنى عمهم من آل على . ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر له قائد فارسى على دين قومه من الوثنية وهو سنباذ وجمع لذلك جموعا عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية فان أبا جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلى وهو من رجال ربيعة فكسر قوته ويقال انه قتل من قومه فى الموقعة نحوا من ستين ألفا . وقام يطلب بثأره أيضا الراوندية فى الهاشمية نفسها فعوجلوا والذى كان الفارس المعلم فى يومهم قائد عظيم أيضا من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيبانى

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هي العنصر العربى وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثانى عنصر الموالى وأهمهم أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقى لاختلاف الغرض الذى يرمى اليه كل منهما

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالى كان منتجا بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيلهم حظا فى الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد اشتهر من الموالى عدد عظيم فى الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر الى بيت خالد البرمكى

وما وصل اليه يحيي بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك فى مخاطباتهم وفى القصائد التى مدحوهم بها وو ردت اليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف اليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفرا منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول الى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها الى آل على كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالى وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم فى دينهم ونسبة الزندقة اليهم الى غير ذلك ممـا يثير الظنون التى لابد منها فى دولة لا تعتمد على عصبية قومية

ولا مراء فى انه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعى اليها هو جعفر بن يحيي بن خالد البرمكى وكان الذى ظنه الرشيد وهجس فى نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بما ينتجه ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التى منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيرا عباسيا تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل ان المنازع السياسية وميل الموالى الى استرداد عز الآباء كان له دخل كثير

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء الى أحدهما كلما رابهم من الآخر شئ الا أنه قلما نسب الى

المصطفين من العرب فكرة خيانة للدولة أو ارادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعد أو غدر بمن ائتمنهم وانما كانت العيوب التى تسند الى بعضهم وتدفع الخلفاء الى عقوبتهم هى التقصير فى أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراسانى لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهرى وهو أول بيت من الموالى منح خراسان على طريق الاستقلال . والذى كان يزيد فى قوة هذه العناصر أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان الى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم اليهم ملوك ماوراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق فى قومه فقدم بغداد ليستزيد عزا بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد تواردا مطردا حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها فى اقامة دولته ويستغنى عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضا أما العرب فلامر ما كان هو وأخوه قليلى الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الأبناء أو الموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الأتراك ظنا من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم لشجاعتهم ووفرة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر فى تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يباينها فى الأخلاق وفى العادات ويذكر

وطنه الذى ينتمى اليه ولا ينساه ان هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهى أن يكون صغوهم اليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق فى قومه يميل الى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الافشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكا لاشروسنة وكان هو معظما فى قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه باله الآلهة

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد فى الدولة وما دريا أنهما بعملهما هذا قد سلما عن الخلافة الى غلمان الأتراك يتصرفون فيها باشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدى الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى ان الافشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل الى المشرق حتى يستولى على خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لا يرون لهم أن يستأثر الافشين بهذا الملك العظيم

كان فى حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربى ضعفا عظيما فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها الى مواطنها فى القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون فى حياتهم اليها وكذلك ضعف الموالى الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء بهم فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به وليس امام الخلفاء الاهم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت أيديهم الى حياة الخلفاء والى أموالهم والى كل شئ عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التى لم يجدوا أمامهم ما يردها لا من العرب ولا من الابناء

الذى كان أول الخلافة شر وأما هذا فهو نهاية الشرور

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بنى العباس ذا نتائج سيئة فانه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما فى الاطراف فقد رأى الولاة أن قدآن لهم ان يستقلوا بما تحت أيديهم لانهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ فى عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض الا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (فى منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقله فى الادارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء باعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحيانا) على السكة وارسال شىء من المال والهدايا الى بغداد وقد حصل ذلك فى المغرب والمشرق والجنوب والشمال فى آن واحد ولا قبل للدولة بارسال الجنود لاعادة الحكم العباسى الفعلى الى تلك الولايات لان غلمان الأتراك قلما يهمهم ذلك ماداموا آخذين بخلاقيم الخلفاء فى حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس الى الرضا بما بذل لهم

صار المتغلبون يقتتلون و ينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء الا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب بن الليث الصفار أن يستولى على قلب الخلافة و يزيل عنها المتغلبين عليها من الأتراك لولا ماظهر من تشدد أبى طلحة الموفق الذى كان ولى العهد وصاحب السلطان فى عهد المعتمد على الله والذى أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولى على الدولة وهو عنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ما أتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش

أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب اليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح في احياء شيء من قوة الخلافة الا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هوفقد الدولة للعصبية القومية التي يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لايلبث أن يزول ويضمحل أمره . فان الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد الى أشد مما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس والسلطان الحقيقي لما بقي بأيديهم من البلاد للأتراك الى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة اخوة من بيت عريق في الشرف القومي وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بامامة بني العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين الأول مرضاة الجمهور البغدادي فقد كان معظمه يدين بامامتهم ويفضلهم على آل علي والثاني أن الخليفة العباسي يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لانه لامانع دينيا يمنعهم من ذلك أما الخليفة العلوي فانه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئاً وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسية بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع مان اله الديلم من هذا السلطان فانهم لم يهملوا العنصر التركي الذي كان كثيرا بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم .

وفي أوائل المئة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل في الاسلام حديثا وفارق وطنه متجها الى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ماوراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقي قاد هذا البيت جماعة الغز الى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التي

كانت بأطراف المملكة الاسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بنى العباس لأنهم كانوا ميالين الى ازالة هذه الدولة الديلمية التى كانت غالية فى تشيعها والادلاء بالأمور الى دولة أخرى تدين بامامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب اليهم مادب الى من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعا بنى العباس الى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصبية الا بقايا مواليهم من المماليك فأعادوا فى العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم فى منتصف القرن الثالث

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائرا مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصبية القومية التى يعتمد عليها الا أن توازن القوى فى الأول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ والمقام الدينى هو الذى ظل حافظا لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالى

٢ - منافسة العلويين

لامراء فى أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب الى قلوب الجمهور من الأمم الاسلامية وهم لهم أطوع لأن المؤثر الدينى يكون مستحكما ولذلك صادفت الدعوة الى أهل البيت نجاحا عظيما فى صدر المائة الثانية من الهجرة.

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل منهما يسابق

الآخر فى القرب من رسول الله ﷺ فأما أحدهما فهو البيت العباسى الذى ينتمى الى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثانى فهو البيت العلوى الذى ينتمى الى على بن أبى طالب بن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة

وقد حاول البيت الأول أن ينال الخلافة قبل العباسيين فى عهد بنى أمية ففشل قام الحسين بن على مطالبا بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن على بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام على أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجته كأبيه — ذلك مع ميل الجمهور العراقى لهم وعطفه عليهم

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان فى احياء بيتهم وكانت الدعوة اليهم مبهمة فى أول الأمر لا يزيد الداعى فى دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد ﷺ الا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصبية خصومهم فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بنى أمية

حرك ذلك من غيرة بنى عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم أن جمهورا كبيرا كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون أن كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافى أما هؤلاء فهم الخصم الذى يخاف جانبه لأنهم يشاركونهم فى السبب الذى قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله ﷺ وربما كان لهم فى نظر الجمهور الشيعى ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ فاذا دعوا الى أنفسهم أحدثوا فى العصبية التى قامت عليها الدولة انقساما ولا يدرى حينئذ لمن تكون الغلبة

ولما كانت المدينة النبوية هى مقام أبناء على من بنى حسن وحسين راقبهم العباسيون سرا واذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهى درجة الخلافة ويريهم أن خلافة بنى عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التى مرت عليهم فى عهد أسلافهم من بنى أمية الا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن الا معززا لدواعى الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذى هم أولى به واذا كان غصب الأجنبى الحق مؤلما للنفس فرؤيته عند القريب أشد ايلاما ولاسيما اذا ظن من ضاع حقه انه يجد من الأنصار من يساعدونه على نيله

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبى جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط فى مصادره وموارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه ابراهيم الذى ثار بالبصرة

وكانت نتيجة ذلك ان اشتدت ريبة العباسيين من بنى عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهفوا الحد فى استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التى أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون الى تقديم الشيخين أبى بكر وعمر على على بن أبى طالب بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين الى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذى نالهم وصاروا كالطائر المحبوس فى قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل

الحسين بن على الذى ثار بمكة فى مدة الهادى سنة ١٦٩ فحيل بينه وبين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة

أفلت من تلك الموقعة ادريس بن عبد الله وأخوه يحيى فاتجه الأول غربا مارا بمصر ومخترقا شمال افريقية حتى أتى المغرب الأقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الادارسة فى طرف الدولة من الغرب واتجه الثانى نحو المشرق وذهب الى نواحى الديلم الا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل . وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين ان من موالى العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بنى العباس الذى كان على بريد مصر فانه هو الذى سهل لادريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكى الذى سهل ليحيى بن عبد الله طريق الافلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد الى أن يربى على من كان قبله فى النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد فى عقوبة من يتهم بالميل اليهم وشدة التضييق على من بقى بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق الى بغداد ليقيم تحت نظره

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الاسلامية وهى أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاأعلى من حظ سائر الأمم الاسلامية لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوى ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بافريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ماتناولته النار وبين سائر البيت وهذا ما فعله الرشيد

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقا بالدولة ماذا رأى . رأى كثيرا من

أبناء الدعوة و رجال الدولة يميلون الى العلو يين و يكرهون ما ينالهم من الشر فأراد أن يتقرب اليهم ببعض مايرغبون فيكسر من حدتهم و يضعف من قوتهم فاختار منهم على الرضا الذى يتولاه أكثر شيعة آل على و ولاه عهده و يظن أنه فعل ذلك ارضاء للحسن بن سهل و زيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم فى سوق الخلافة اليه واخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن يتشيع وينسب الى الزندقة أيضاً ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على مايرغب فانه وان أرضى العلو يين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثار واضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه ابراهيم بن المهدى فلم يكن امامه ما يرأب به هذا الصدع الا أن احتال فى التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوما تناولوه بأسيافهم ثم مات بعقب ذلك على الرضا فنسب قوم ذلك الى المأمون أيضا والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة مايقوى هذه التهمة

عادت الأمور بعد موت هذين الى مجراها ورجع أهل بغداد الى المأمون وانحرفوا عن عمه . ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلو يين والتشيع لعلى بن أبى طالب وأعلن ذلك فى كلامه وفى كتبه حتى اذا رأى منهم الميل الى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجارى أباه فى الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بافريقية - وهى الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم اياهم بالاقامة برأى منهم فى بغداد أو فى سامرا بعد اختطاطها

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم

على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الاحسان الى العلويين والتصريح بتفضيل على على غيره من شيوخ الصحابة وكان فى ذلك على سيرة جده الرشيد الا أنه زاد عليه فقد كان يصرح فى مجالسه بانتقاص على بن أبى طالب و يبيح المجان من جلسائه الهزؤ والسخرية به و يكره كل من عرف بالتشيع الى العلويين و يؤذيهم فى أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون فى قصائدهم فينتقصون آل على و يفيض عليهم الهبات الوافرة وهدم قبر الحسين بن على ونهى الناس عن زيارته وشدد فى ذلك تشديدا عظيما فكان الناس من ذلك فى هم وحزن حتى ان شاعره الكبير أبا عبادة البحترى لما مات وولى المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال

رددت المظالم واسترجعت ... يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبى طالب بعد ما ... أزيع بسربهم فابذعر
ونالت أدانيهم جفوة ... تكاد السماء لها تنفطر
وصلت شوابك أرحامهم ... وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حظهم ما نأى ... وصفيت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقا ... ء لا عن تناء ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاؤكم ... واخوتكم دون هذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة ... وحدا حسام قديم الأثر
يشاد بتقديكم فى الكتا ... ب وتتلى فضائلكم فى السور
وان عليا لأولى بكم ... وأزكى يدا عندكم من عمر
وكل له فضله والحجو ... ل يوم التفاضل دون الغرر
بقيت امام الهدى للهدى ... تجدد من نهجه ما دثر

مع أن البحتري له فى المتوكل المدح الجليلة والمراثى المؤثرة

ثم آل على ثلمة أخرى فى سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته فى الديلم ولم يفلح بنو العباس فى القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التى كانت تغضى حياء وتخاف تدينا

رأى العلويون فى النصف الثانى من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاما خاصا عرف بنظام الدعوة ساروا فى ذلك على أثر الدعوة العباسية الا أنهم حلوها بشئ من المقدمات وبعثوا دعاتهم الى جميع الأقاليم الاسلامية غربا وشرقا ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أي شئ يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا فى الاسلام مالم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره . ثم قام على أثرهم الفاطميون بافريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقد حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة الى التمكن من الأمر وخطب فعلا للعلويين على منابر بغداد نحوا من سنة

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن فى نسب العلويين المصريين وكتبوا فى بغداد محضرا وقع به العلماء والفقهاء وكبار بنى هاشم وقالوا فيه ان نسب العبيديين بمصر غير صحيح وانهم أدعياء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضى نقيب الطالبين ببغداد قوله

ما مقامى على الهوان وعندى ، مقول صارم وأنف حمى

واباء محلق بى عن الضيـــم كما راغ طائر وحشى

أى عذر له الى المجد ان ذ ل غلام فى غمده المشرفى
البس الذل فى ديار الاعادى وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبي ومولاه مولا ى اذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعلى
ان ذلى بذلك الجوعز وأوامى بذلك النقع رى
قد يذل العزيز مالم يشمر لانطلاق وقد يضام الابى
ان شرا على اسراع عزمى فى طلاب العلا وحظى بطى
أرتضى بالأذى ولم يقف العز م قصورا ولم تعز المطى
كالذى يخبط الظلام وقد أقـ ـمر من خلفه النهار المضى

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يثبتها فى ديوانه وهى مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فان مثل هذه الاشياء لم تفدهم فائدة ما

ومما زاد الامر بلية ان بنى بويه الذين استولوا على بغداد فى منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور فى بغداد بما يشتهون من العادات التى كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن على رضى الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون الى السلطان بالتشيع

وفى أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس و بالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بنى العباس

استمر هذا النزاع السياسى بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام . واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال ان السبب في هيج التتار واغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة

اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهى الكرخ

من ذلك نرى ان النزاع بين العباسيين وآل على استمر من أول خليفة الى آخر خليفة وكان ذلك سبباً من أسباب ضعف الدولة بعد ماتقدم ذكره من خلل العصبية التى كانت عمدة العباسيين

ويمكن أن يعد هذا السبب من متممات السبب الأول

٣ - ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربى حافظ عليه العرب فى جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأبناءهم وأنفسهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كالفرس والروم وحوادثهم فى ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف ولسنا بصدد أن نقتصها . لما جاء الاسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمرا حتما لاهوادة فيه قال تعالى فى سورة الاسراء (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا) وقال (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون) الى غير ذلك من الآيات القرآنية التى شددت فى وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساسا تقوم عليه الأمة الاسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنو أمية هذا المنحى لان العنصر العربى كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال انها كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التى فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا انها أول غدرة فى الاسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتلته وحييت فقال عبد الملك أو لست بحى فقال الشيخ العربى

حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد . فانظروا كيف عد العربى هذه الحياة كلا حياة ولم يصل الى علمنا في هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدى عنصر غير عربى ظهر منها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على انه ليس للعهود فى نظر خلفائها كبير قيمة فقد قتل المنصور فى حياة السفاح بن هبيرة بعد أن أمن أمانا لا شك ولا حيلة فيه وكان الذى أشار بقتله أبو مسلم الخراسانى مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمرا دون مشورته . ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبى مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن على بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال انه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان أبى مسلم أم أمان عمك عبد الله بن على والسلام وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حراسة دينه وسياسة الأمة

وهذا الذى حصل فى صدر الدولة كان مجرئا لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود اذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التى تعقد لتولى الخلافة فانهم جعلوها من الأشياء التى يسهل حلها وان كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمدا المهدى وهذا التقديم وان كان قد تم بطلب عيسى ورضاه الا أنا نعرف كيف توصل المنصور الى الحصول على هذا الرضا من الاساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفى رأيى أنه لو وجد نصراء لفعل وان كان قد أثر عنه شعر يفيد انه آثر

مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما اما صغار وأما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدى مثل ذلك معه فعزل عن العهد بمرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبه أبوه

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك الى الفتنة الشعواء التى كانت بين سنة ١٩٤ الى سنة ١٩٨ قاست الأمة فى أثنائها مصاعب هائلة . ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهى أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة علي المتنازعين بل تتعداهم الى القواد والأمراء فهؤلاء ينشقون أيضا و يستسهلون الاقدام على فك تلك القيود التى حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها

كتب الرشيد أمانا ليحيى بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث فى الوجوه التى يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة فى ذلك فمنهم من أبت عليه شيمته و دينه أن يسترسل فى الدين مع الاهواء ومنهم من سارع الى هوى الخليفة وصار يبدى الأوجه التى ينتقض بها الأمان

كل هذا من العيوب التى شقت عصا البيت وتعدت الى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها الى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم فى التاريخ التفصيلى والله أعلم

فهرست

﴿ تم الفهرس ﴾